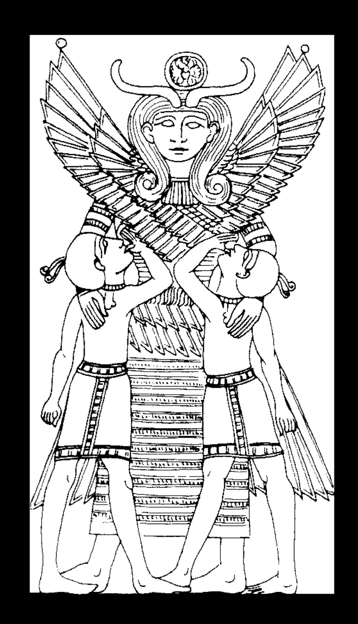
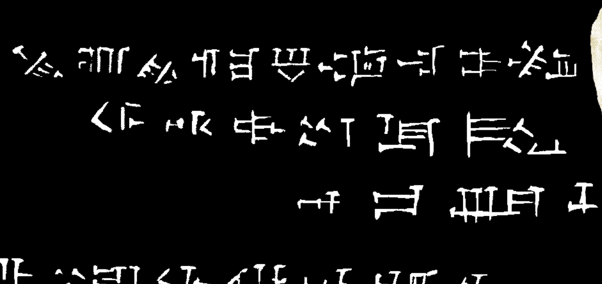
شارل ڤيرُوللو

أساطير بابل وكنعان

تعريب

ماجد خير بك





أساطير بابل وكنعان

أساطير بابل وكنعان

تأليف

شارل ڤيرولو

العضو في مؤسسة الشرق القديم المصوّر

تعريب

ماجد خير بك

مدرّس الفرنسية في تجهيز جبلة
والعربية في المدارس الخاصة سابقاً

٢٠٠٠ / ٢ / ١٩٩٠

الغلاف تصميم الفنان علي عثمان

تدقيق ومراجعة

هاني الخيّر



بسم الله الرحمن الرحيم

* مقدمة الكتاب *

بقلم سعادة السفير اليمني
الأستاذ أحمد المضواحي

الأساطير من خيالات البشر ومن ابداعاتهم وبدَعِهم أو من تخرصاتهم وأعاجيبهم وقد أوحت بها إليهم الرهبة حيناً والحيرةَ تارة كما أن الفراغ وحب الاستطلاع والحنين لمعرفة المغيبّات قد أسهمت بدورها إلى حد كبير في الجري والبحث عن معلوم وعن خالق عجزت المفاهيم والأفكار عن إدراك كنهه (لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) فتراجعت التخرصات خاسرة عند بعض الأقوام إلى نحت التماثيل واختلاق الأساطير، ولقد تعددت تلكم التصورات والأساطير وتنوعت تبعاً للأزمان والأقوام والأماكن والمفاهيم، وللناس فيما يجهلون مذاهب رغم الدوران في فلك واحد: (النشوء أو أصل الوجود، والمعبود، والمآل والمصير إلخ..) أو الله، والكون، والإنسان أو ماقبل الحياة ومابعد الموت. غافلين أو متغافلين عن معنى لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا.

وقد خلَّدت الملاحم والرسوم والنقوش والآثار والكتابات معتقدات و طقوس وآلهة ابتدعوها وخلعوا الأسماء عليها بدون سند أو حجة إنما من الحدس والأوهام لامن الوحي والإلهام.

وقد وقف بهم التقصيّ والبحث عند الرسم والنحت لما تصورته قدراتهم الذهنية فبات الفهم انحرافاً والاخراج عقيماً والمخلوق خالقاً سواء كان ماخطته الأيدي تمثالاً حجرياً أو صلصالاً فخارياً أو حائطاً فسيفسائياً أو ماتصورته المفاهيم خليطاً عددياً من الأرباب منسوباً للشموس والأقمار أو ظواهر الطبيعة المختلفة، وكذلك التصورات المعبودة المغلوطة بالنسبة لبعض بني الإنسان أو لبعض المخلوقات الحيوانية كالطيور المحلقة والحيوانات المائية والبرية سابحة أو ماشية أو زاحفة وليس الأمر مغايراً ولامتباعداً في الأصنام والتماثيل عما جاء في الملاحم أو

الأقـوال أو الأمثال أو القصص أو التراث الشعبي شعراً ونثراً جميعها لابعضها بقيت في أمـاكنهـا باهتــة خرساء عقيمة، لكنها مآثر شاهدة على انقراض أهلها أو أصحابها بل هي أدلة ناطقة على عجز الأمم والأقوام الذين ابتدعوها لقصور مداركهم عن فهم معنى الحقيقة الأزلية الباقية: (الواحد الصمد) (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام).

وهكذا كان الحال أسطورياً وتيهاً في الخيال، وان حصل تماثل في التماثيل أو تشـابــه في الأقـوال سواء لدى البـابليـين أو الكلدانيـين أو لدى الآشـوريين أو الكنعانيين، أو عند الفراعنة والفينيقيين أو في صفوف البوذيين أو لدى الرومان والاغريقيين وحتى عند الاسرائيليين في زمن التيه، وفي مرحلة عبادة (...) وفي عهود السبي رغم توراتهم المـزعومة وتلمودهم الموهوم فكل تلك الأسفار التي دونوها في سجون بابل وفي حالات من الاضطهاد والحقد وروح الانتقام أساطير وأباطيل (ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون) ولايختلف الأمر بالنسبة لشرعة السيد المسيح بعد صلبه، فقد تخطى الخيال عند الأتباع حدود المنقول من كلامه عليه السلام (ياإلهي لماذا تخليت عني) إذ صنفه القوم إلهاً وجعلوه ثالث ثلاثة كما تخطى خيالهم أيضاً حدود المعقول فكان حديثهم عن قيامة المسيح بعد صلبه وبعد دفنه.

وهكذا وعلى ذلك المنوال طغت أساطير البشر ولم يتخلوا عن النزعات الوثنية حتى بعد ظهور رسالات التوحيد أو بعد الاعتناق لها.

لقد عهد إليّ الناشر بوضع مقدمة لكتاب معرب من اللغة الفرنسية يتحدث عن أساطير أزمنة شبه وثنية مشرقية المحتوى بابلية الجذور كلدانية المولد أسطورية الإبداع، استشراقية النقل ساذجة الرواية.

وان بطلاً مثل جلجامش أفشل حيلة عشتار قد خدعته حية فانتزعت منه سر الخلود الإلهي حين سلبته نبتة الحياة التي خاطر من أجلها بعبور الجبل والنهر والغوص في البحر العميق، فأصبحت الحية المحتالة والأفعى الماكرة تغيّر جلدها كل عام كي تؤمن لنفسها شباباً متجدداً كما تقول الحكاية أو الأسطورة.

وحضارة وادي الرافدين تذكرنا بالعديد من الأساطير والحقائق معاً فهي مهد ألف ليلة وليلة كما أن كليلة ودمنة من مضاربها وخمريات أبي نواس من مشاربها، وملحمة كربلاء من مآثرها، ومقبرة رابع الخلفاء وعظيم الشهداء في جنباتها، وهكذا تختلط الحقائق والأساطير في خضم تاريخ حافل بالفضائل والرذائل، والانتصارات والهزائم في هذا الوادي القديم والمتجدد.

ومن مفاخر خصوبة هذا الوادي الشريف الرضي وأبو الطيب المتنبي، ومن أمجاد تاريخه هارون الرشيد ومحمد المعتصم صاحب عمورية.

ومن فطنة قارىء هذه المقدمة التمس العذر واتقدم نحوه بالاعتذار لأن الشيء بالشيء يذكر، والأساطير تذكرنا أحياناً ببعض الحقائق لا بها جميعها، فالكتاب في محتواه يتحدث عن أساطير حقبة من التاريخ في بقعة من الأرض تُعرف اليوم بالهلال الخصيب، سكانها أصولهم واحدة وجذورهم في جنوب الجزيرة العربية موجودة، وسكان اليوم هم أحفاد الأمس تواجههم أخطار وتتكالب عليهم أمم وتهددهم عصابات وتكبلهم أساطير والنائمون بحاجة إلى أجراس توقظهم، ولاسيما في مرحلة الذهول والغفول والتمزق.

وإنني أقدر للناشر ثقته بي عندما اختارني لوضع هذه المقدمة لكتاب عرّبه كاتب وشاعر وأديب وأستاذ جليل هو المرحوم ماجد خيربك، فلا ريب بأن قريحة المعرب الوقادة ومعرفته العميقة باللغة الفرنسية قد أجادت وأتقنت في نقله إلى لغة الضاد بأسلوب شيق ممتع سلس مبسَّط مع مراعاة الجودة والاتقان والأمر ليس بغريب بالنسبة للأستاذ ماجد خيربك فهو مترجم كتاب شخصية محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو مؤلف كتاب اللغة العربية جذورها انتشارها ـ تأثيرها في الشرق والغرب، كما وأن له ديوان شعر أسماه (عبير عبر وعبرات) ولماجد خيربك كتاب آخر مترجم عن الآراميين وله أيضاً كتاب عن تاريخ جبلة، وجبلة هذه هي المدينة السورية التي تصافح وتلامس البحر الأبيض المتوسط، وليست مدينة جبلة التي تعانق هضاب وجبال اليمن في اللواء الأخضر بمحافظة إب والتي لم تحظ بعد بماجد آخر يتحدث عن أمجادها.

جزى الله ماجد خيربك عن وطنه وأمته وقومه ماضياً وحاضراً خير الجزاء وشكراً للناشر وللقارىء وللماضي المجيد أما الحاضر فلا....

دمشق في ١٥ جمادى الأولى ١٤١٠ هـ الموافق ١٢/١٢/١٩٨٩

أحمد بن أحمد بن علي المضواحي



مقدمة المعرب

بعد أن اطّلع أحد الأصدقاء على « كتاب الآراميين » الذي عرّبْتُه طلب مني بالحاح أن أشرع في تعريب « أساطير بابل وكنعان » فقمت بالأمر مع علمي بوعورة الطريق . وقد كلفني ذلك جهداً كبيراً . ولاسيما في تعليقي على أسماء الشخصيات الواردة وإيضاحها حتى لايرى القارىء نفسه في متاهة وحتى يُلِمّ بجميع الخيوط .

يرى القارىء الكريم في مطالعته هذا الكتاب المدى الذي توصل إليه أسلافنا في فهم الكون والكائنات ويتحسس خيالهم الخصب ويتلمس أفكارهم الواسعة بصورة جلية . وحاولت جهدي أن تكون عبارتي واضحة مستساغة فلا لُبْس ولاغموض ولاشطط . كما حاولت أيضاً أن لاأخرج من دائرة المؤلف .

فإذا ما رأى قارئي بعض المآخذ فليعذرْ . وله الشكر

ماجد خير بك

كانون أول ١٩٧٦

مقدمة المؤلف

كما نعرف . إن كتب تاريخ العالم كثيرة اليوم وفي كل منها يحتل الشرق القديم أو الشرق التقليدي المكان الذي يخصه .

ولكن في هذا المجال ـ أكثر من غيره من المجالات ـ تكثر التعديلات المستمرة نظراً للاكتشافات العديدة . وقد حان الوقت لوضع كتاب عن الشرق القديم ؛ ولا يستطيع كاتب بمفرده أن يعالج هذا الموضوع رغم جدارته ووفرة طاقته إلا بمشاركة اختصاصيين معتبرين ولاسيا في كتابة تاريخ شعوب مختلفة كالحثيين والآشوريين وغيرهما . . .

في مؤلَّفٍ مفهوم تتابع الفصول وِفقاً لترتيب تاريخي منذ عصر السومريين حتى الفتح الروماني . ولكنٍ مصاعب الترتيب العملي التي يصطدم بها الكاتب لتحقيق هذا المشروع شاقّة جداً كما وقع لنا . فعوّلنا أن نعتمد على سلسلة من الدراسات المتعلقة بنقطة واحدة في التاريخ . فقدمت كل واحدة من هذه الدراسات الموجهة والمحددة حالةً ـ في الأبحاث الحاضرة ـ ذات فائدة جلّى . فالأحداث الناتجة من التنقيب جلبت لنا معرفة واسعة ولا سيما عن الذين اهتموا بأصول الحضارات .

وليس القصد من العنوان الذي توّجنا به هذا الكتاب : « أساطير بابل وكنعان » وضع كتاب مختصر عن الميتولوجيتين البابلية والكنعانية بل تقديم لمحة بسيطة عمّا هو مهم في تلك الميتولوجيتين المختلفتين عن بعضهما . وهذا مما يبيح لنا أن نقدم ذات يوم تفاصيل أكثر وبصورة مستقلة في هذه المجموعة .

شارل فيرollo

الأساطير البابلية



خريطة ميزوبوتاميا وإيران

الأساطير البابيلونية (البابلية)

الأصول

لم تكن أساطير «كلدة» القديمة ـ أو بالأحرى كما يقال اليوم « أساطير بابليون » ـ معروفةً منذ زمن طويل إلا من بعض نبذٍ من كتابٍ أُلِّف باليونانية في القرن الثالث قبل الميلاد ، ومؤلفه بابليّ أو كلديّ اسمه « بيروز » وحفظ هذه النبذ اسقفُ قيسارية الشهير « ايزيب » Eusébe الذي عاش بعد ستمائة عام من تأليف الكتاب .

ولم يحتفظ هذا الكاهن بصفحات من كتاب بيروز إلّا لغايةٍ في نفسه ، وذلك ليقارن بين ما تورد الروايات المسيحية وبين ما تورد الروايات الوثنية عن أصل العالم والانسان والحضارة ، وليقدم البرهان بأن روايات الوثنيين تقليد طائش وأخرق للروايات المسيحية .

أما الآن ، بفضل النقوش المسمارية التي جمعت بالآلاف وبمئات الآلاف من « كلده » ومن « اشوريا » فإننا نعلم الكثير عما كانوا يقومون به من قبل ، وليس عن نصوصٍ تناقلتها الأيدي فأصابها المسخ والتحوير بل عن وثائق أصلية بعيدة عن التغيير ، وإن كانت مبتورة أحياناً .

والروايات والأساطير التي ظهرت لنا من قراءة الخط المسماري تختلف كثيراً عما جاءنا من « بيروز » وتختلف فيما بينها لا بل وتتضارب . وهذا الاختلاف أو التضارب يعود إلى ماكتشف في « بابيلونيا » (بلاد بابل) وبين ما اكتشف في وسط بلاد مابين النهرين أو في شماليه وبين ما ظهر في « أشوريا » . ويعود

أيضاً إلى ما عُثِر عليه في الألف الثالثة وما عثر عليه في الألف الثانية أو الأولى قبل المسيح .

وفي كل اكتشاف جديد ـ والاكتشافات تتابع دون توقّف ـ يبرز لنا مدى ما توصل إليه وهم المؤرخين القدامى الذين كانوا يتقبلون الأمور دون تمحيص وتنقيب ويصرّحون بأن الشرق القديم ظلّ جامداً[1] خلال ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف سنة ـ فضلاً عما كان قبل تدوين التاريخ وقبل التاريخ ـ ظلّ جامداً بمعتقداته ومؤسساته وفنونه .

وهذا يشكل خطأ فادحاً ولكنه يصحح بسهولة ـ إذ منذ ثمانين عاماً لم يتوفر لهم (للمؤرخين) العدد الكافي من الوثائق ، كما أن ما حصلوا عليه من وثائق لم تؤرخ كما يجب أو كما كانت أو كما كانت مفهومة . فكانوا يعمدون إلى تقريبها من بعضها البعض ، ولم يكن ثمة تقريب بالمعنى الصحيح بل كانوا يؤلفون بين أنغامها أو يخلطونها ، فلا يحسبون حساباً لما بينها من فوارق أو تعارض بل كانوا يحاولون طمس ما خفي عنهم أو يضعّفونها فيتوصلون بذلك إلى ايجازات ترضي النفوس مدة وهي بالحقيقة لاقيمة لها . والمؤلفون يتبجحون بتحاليلهم لعصور القياصرة ، والدليل على خطئهم هو أنهم كانوا يعزون أسطورة «نينوس»[*] و«سمير أميس»[**] إلى شخص واحد أو إلى شخصين على الأقل ، قام أو قاما بمجموعة غزوات ملوك بابل وآشوريا وألصقوا به أو بهما غزوات كانت لغيره أو لغيرهما .

---

(١) كتب جيكْيِير Jéquir المنقب عن آثار مصر وبحق كتب : «كلما تخصصت الأعمال كلما ظهرت الفوارق بين العصور، وحتى الآن تميل مجموعات من المؤلفات لتبرز كُلًّا متماسكاً مما يزيد أسطورة مصر التي لاتتبدل غرابةً في نظر الجماهير» . تاريخ الحضارة المصرية ص ٨ باريس ١٩٢٣ الناشر بابوت . «المؤلف» .

(*) نينوس ملك أسطوري لأشوريا وفاتحٌ شهيرٌ وينسبون له بناء مدينة «نَيْنوى» حوالي ٢٠٠٠ ق.م ، تزوج سمير أميس السورية التي قتلته . «المعرب» .

(**) سمير أميس ملكة أسطورية لأشوريا وبلاد بابل وينسبون لها بناء مدينة «بابل» وحدائقها المعلقة . «المعرب» .

ومن ناحية اخرى ، إذ ما أردنا أن نقدم عرضاً يتعلّق بالشرق القديم ويصف البلاد كما يراها المسافر أو الجغرافيّ ، الآن ، أو إذا أردنا أن نعرض تصـورات ذهنية غير مجدية يجب أن نُتْبِعَهـا بملاحظة هامة جداً تتلخّص في كلمتين : « ان أولئك السكان (القدماء) كانوا من عالَم غريبٍ عن عالمنا ولهم أفكار لاتمتّ بأية صلةٍ بأفكارنا » .

فعند البابليين خاصة ، كان العالَم عبارة عن سهل رحيبٍ جداً يرويه نهران عظيمان تحدّه جبال شامخة ـ القوقاز وطوروس وسيناء ـ هذه الجبال تسند قبة السماء .[٢] والكل يطفو على محيط خضمّ لاقرار له ولاحدود .

كيف خُلِق هذا العالم ؟ هذا سؤال لم يطرح في القديم قط ، فربما كان البشر يشتغلون أو يشغل بالهم ما هو أهم من هذا السؤال وألزم . ومهما كان الأمر ، يجب إلغاء هذا السؤال الذي يظهر ـ على كل حال ـ في نصوص قديمة جداً تعود إلى خمسين قرناً .

إذن لاجواب لهذا السؤال . وهذا ما يدهشنا نظراً لصعوبة المسألة ولطول مدة الحضارة البابلية أو بالأحرى حضارات ميزوبوتاميا القديمة .

أما « كلده » فبلاد صغيرة جداً تعادل مساحتها تقريباً مساحة الدانمارك ولم تشكل دولة لها مركزها . فكانت عبارة عن مجموعة من المدن المستقلة بعضها عن بعض مثل : « اور »، « أوروك »، « إيريدو »، « لارسا »، « سيبار ». هذا وان كانت كلهـا تتكلم لغة واحدة وتستعمل نفس الخط . وكل واحدة تحتفظ بمؤسساتها ومعتقداتها وتقاليدها . فهذه تعبد « سِين » (الإله القمر) وتلك « شَمَش » (الشمس) ابن « سين »، واخرى عشتار المستقرة في كوكب الزهرة . في داخل كل مدينة ، كانت الأفكار والعادات تتطوّر مع القرون . ومثالنا على ذلك : إن الحفريات في « أور » موطن ابراهيم (الخليل) أظهرت أنه كان حول هذه المدينة ـ حوالي القرن الثلاثين ق . م ـ مقابر واسعة تقام فيها

---

(٢) قبة السماء أو بالأحرى سبع قباب الواحدة فوق الأخرى، أو الواحدة ضمن الأخرى، لكل سيارة من السيارات السبع قبة، الشمس والقمر من عدادها. «المعرب».

طقوس غريبة ومراسيم للدفن لم تر بعد ذلك العصر لا في « أور » نفسها ولا في أية مدينة اخرى من مدن ميزوبوتاميا .

في ذلك الزمن ، لم تكن « بابل » إلا مدينة صغيرة بالنسبة لبقية المدن . وما إن اختارها « حمورابي » ـ حوالي ١٨٠٠ ق.م ـ عاصمة له ولامبراطوريته حتى ظهر الإله « مردوخ » واحتلّ المرتبة الأولى واحتكر لنفسه جميع صفات بقية الآلهة ، وحَظِيَ أخيراً بلقب « الخالق » .

خلق العالم

يقولون في القدم ، كان العالم عبارة عن خَوَاءٍ حقيقي وهوّة سحيقة يختلط فيها الماء العذب الذي يختص بالإله « إبْسو » بالماء المِلْح الذي يحكمه مارد آخر يدعى « تيامات » .

من هذه المهواة خرج زوجان من الآلهة ثم زوجان آخران ومن الزوجين الأخيرين ولد « آنو » إله السماء و« إيا » إله البحر . وبما أن « أبسو » وتيامات » ـ وبالأخص « تيامات » ـ طلب « آنو » و« إيا » من مردوخ ابن « إيا » أن يثأر لهما للاهانات التي لحقت بهما منهما . فانبرى هذا ، وبعد معركة حامية ، تغلب عليهما وقبض على « تيامات » وشطر جسمه فعمل السماء من الشطر الأول والأرضَ من الشطر الثاني . ثم نظم الكون فوضع الكواكب في أمكنتها وفوّض لسين (الاله القمر) قياس الزمن . وبعد أن استشار أباه « إيا » خلق إنساناً سماه « لولْلو » ـ نجهل معنى هذا الاسم ـ وقد خلقه خليطاً من الطين والعظم والدم . وهذا الدم كان من دم إلّه هو ولا شك مردوخ نفسه .

لقد خلق مردوخ « لوللو » ليكون في خدمة الآلهة . وبعد هذا الجهد القاسي الذي بذلته الآلهة والذي اشترك فيه الجميع ركنوا للراحة .

ـ لم يذكر في هذا العرض لا هبوط الإنسان ولا إيجاد المرأة ـ

الانسان الأول

إذا أردنا أن نعرف كيف كان البابليون يتصورون الانسان الأول الخارج من بين يدي الخالق فما علينا إلا أن نعود إلى فصل يشغل مكاناً كبيراً في اسطورة جلجامش يتعلق بشخصية « انكيدو » الذي أصبح صديقاً حميماً لجلجامش لا يستطيع أن ينفصل عنه .

وبالحقيقة لم يكن « انكيدو » الانسان الأول . ولكنه مثل « لوللو » الذي خلقه « مردوخ » على هيئة تمثال من كتلة من الفخار أو الحجر ثم جاءت الإلهة « أرورو » زوجة مردوخ وأعطته الحياة .

كان « أنكيدو » يعيش في زمن خرج البشر فيه من طور التوحش في عهد الملك جلجامش ـ هذا الملك من نسل أسرة سيطرت على « أوروك » في « كلده » السفلى . كان « أنكيدو » يقضي حياته في قلب البرية مختلطاً بالوحوش يأكل العشب مثلها ويرد المياه . وكان مملوءاً قوّة وشعره طويل ويغطي جسمه الوبر، عاش طويلاً في اللامبالاة والجهل ـ كما أرادت له « أرورو » زوجة « مردوخ ».

وذات يوم التقى أنكيدو بصياد جرّه طمعُه إلى ناحيته . فدافع عن أصدقائه الحيوانات ، وسرعان مانشبت معركة بين الاثنين لم ينج الصياد إلا بقارعة الذقن . ولما رجع هذا إلى « أوروك » قص على الملك جلجامش ماحدث له. فأخذه الفضول وصمم أن يقوم بحيلة يستدرج فيها هذا المخلوق الرهيب . فأرسل إلى البرية امرأة ـ خادمة عشتار ـ ذات جمال أخاذ . وما عتمت هذه أن كبحت جماح الوحش فاستسلم لغوايتها وبعد ثمانية أيام عاد إلى حيواناته ولكنها نفرت منه (فدهش لذلك) كأنها لم تعرفه أو كأنها خافت منه .

لقد تحول « انكيدو » وانتقل من حياة إلى حياة ، فتبع المرأة بكل شوق فقادته وهي ممسكة بيده إلى بين الرعاة الذين سقوه الحليب . وهكذا طفق « انكيدو » يتحضر شيئاً فشيئاً ولكن بسرعة . وما إن دخل « أوروك » حتى تغذى بالخبز وشرب الخمر ، شرب سبعة أباريق متتالية . ثم دهن جسمه

بالـزيت ولبس الثياب على زيّ المتحضرين وطلب السلاح ليدفع عن الرعاة والقطعان غارات الأسود والفهود . وأعجب جلجامش بقوته الخارقة وشجاعته الفائقة فأحب أن يجعل منه رفيقاً له .

ان الانتقال من حياة إلى اخرى لايحدث بسهولة . فلما علم « أنكيدو » أنه لابد له من أن يعمل ليكسب ما يقوم بأوده أصابه الذهول وامتقع وجهه ، فكـأنه ندم على حياته الأولى ـ أيام شبابه ـ فشتم معلمته خادمة الهيكل التي كانت السبب الأكبر في هذا التحوّل .

أسطورة « أوانيس »

هذه هي اسطورة « انكيدو » باختصار . وقد قدّم لنا المؤلف « بيروز » شكلاً آخر عن أصل أنكيدو ويختلف كل الاختلاف عما ذكرناه . فهو يقول (أي بيروز) بأن تربية الانسان وتحضيره من عمل مخلوق فوق الطبيعة . وهذا المخلوق يسمّى « أوانّيس » ووجد من البحر في زمن كان الناس يعيشون ـ مثل انكيدو نفسه ـ كالحيوانات .

وقال « بيروز » إن « أوانّيس » سمكة لها رأسان : رأس سمكة ورأس انسان ورجلاه تخرجان من ذنب السمكة . ولهذا المارد صوت إنسان . وكان يقضي نهاره بين النـاس لايتناول أي غذاء يعلمهم الحروف والكتابة والعلوم والفنون في كل صورها وقواعد تأسيس المدن وبناء الهياكل ومباديء القوانين والهندسة ويدلهم ويرشدهم على أعمال البذر والحصاد . وباختصار أعطى البشر كل ما يسـاعـدهم على قضـاء حياة ناعمـة . ولاشيء يحتاجونه إذا ما طبقوا تعاليمه . وعندما تغرُب الشمس يعود إلى البحر ويغوص في الماء ويظل طيلة الليل تحت الغمر لأنه كان برّياً مائياً . وأخيراً وضع كتاباً عن أصل الأشياء وعن مستوجبات الحضارة وقدمه للناس .

وهكذا ـ حسب رأي البابليين ـ لم يتوصل البشر إلى مايفرق بينهم وبين الحيوان من حراثة الحقول وتشييد المدن بالبحث والتنقيب ولا بالتجارب والجهود

المختلفة ولا بالتفاعل . لقد جاءهم العلم دفعة واحدة من قبل الآلهة ولاسيما بفضل هذا الإله الذي دعاه « بيروز » «أوانّيس » . ولاشك بأن أوانّيس هو الإله « إيا » لأنه في نظر البابليين إله العلم وسيد البحر .

وهذه الفكرة ـ بأن العلم انبثق من البحر ولم ينزل من السماء[٣] ولم يأت من باطن الأرض ـ تدل على أن البابليين حافظوا على تقاليد قديمة وهذه التقاليد تروي بأن شعباً جاء من وراء البحر حاملاً معه مباديء حضارة تامة . إذ حسب قول « بيروز » لم يتجدد شيء ولم يخترع أي شيء بعد مجيء « أوانيس »

وتتفق هذه الروايات مع بعض الاكتشافات الأثرية التي ظهرت في وادي نهر « الأنديس » الأسفل ، ويبدو أنها تعود إلى عصر قديم جداً وقد توثقت فيه علاقات قوية بين أقطار الهند الغربية وبين البلاد التي يرويها دجلة والفرات في نهاية مجراهما .

وإذا كنا نسلّم جدلاً بأن أسطورة « أوانيس » حقيقة تاريخية يجب قبولها ـ وهذا مما لايرضى به العقل ـ من أن المحيط (البحر) هو الذي رتب الأمور ونظّمها وليس من التجوال في الأقطار وتعلم الناس من بعضهم البعض ، يجب علينا أن نقبل بأن الشرق هو الذي نشر هذه التعاليم أي ان الهند علمت بلاد بابل (بابيلونيا) . وهذا مما لم يتأكد بعد ولكي نكون على ثقة تامة لابد لنا من الانتظار حتى نضع أيدينا على وثائق تقطع الشك وتضع حداً وبصورة صحيحة لهذه الشكوك، وثائق أوضح وأجلى مما نعتمد عليه اليوم .

مع ذلك ، لماذا قدّمت الآلهة ـ أوانيس وإيا وغيرهما ـ لبني البشر التعليم الذي ينقصهم والمعارف التي تكفل لهم « عذوبة الحياة »؟ فهل ندم الخالدون عندما خلقوهم بؤساء وأرادوا أن يكفروا عن تلك الاساءة ؟ وهل قاموا بما قاموا به « شفقة منهم وحباً » كما يقول ذات يوم « افلاطون » ؟ .

---

(٣) يعتقد المسلمون بأن القرآن الكريم نزل من السماء أو نزل به جبرائيل على محمد ﷺ ـ صرح بذلك النبي مراراً ـ وفي «أتروريا» Etruria يزعم العرّافون بأن علمهم جاء به قَزَمٌ شعره أبيض، اسمه «تاجيس» Tagés خرج فجأة من أخدود شُقّ طرياً . «المؤلف» .

من المحتمل أنهم (أي الآلهة) لم يقدموا ماقدموا إلّا لفائدتهم الخاصة ، أو كما يقال، لأنانيتهم كي يصلحوا عملهم ويضيّقوا المسافة التي تبعدهم عن مخلوقاتهم . إذ لابد لهم من عبيد على هذه الأرض ، عبيد لايُخجلون أسيادهم وأكفاء للقيام بخدمتهم . ولكن على هؤلاء العبيد أن لايتعدوا طورهم وأن يحذروا من اجتياز الحدود المرسومة لهم وأن لايحاولوا أن يقوموا بأعمال جبّارة تجعلهم أنداداً لهم فيسرقوا الأسرار . إن تعدوا حيِّزَهم فسيعاقبون العقاب الشديد .

ملوك ماقبل الطوفان

بعد اختفاء « أوانيس » بزمن طويل ولّى الآلهة على البلاد كلْدياً من بابل ليكون « راعياً للشعب » . ويدعوه المؤلف « بيروز»» « ألوروس » وهو أول الملوك ، ولكنه لم يترك أي ذكرى واضحة في رؤوس رعاياه مع أنه ظل يحكمهم ـ كما يقولون ـ ستاً وثلاثين ألف سنة .

و « أولوروس » هو الأول من سلسلة عشرة ملوك ـ الملوك العشرة قبل الطوفان ـ ولكننا لانعرف عنهم الا النزر اليسير ، عدا عدد السنين التي حكم فيها كل فرد منهم . ويرتفع هذا العدد إلى أربعة آلاف واثنين وثلاثين قرناً[٤] .

ولانعرف ولن نعرف قط مامراد البابليين بهذا القول. ولاريب من أنهم هم لايعرفون. انهم يحاولون أن يرجعوا أصل ثقافتهم الى زمن عريق جداً بالقدم ويعبرون بأسلوبهم الخاص عن هذه التخيلات وذلك بتكديس أرقام فوق بعضها البعض. ونستطيع أن نقول عنها بأنها فلكية ـ بقطع النظر عن ضخامتها ـ وهذه الأرقام لاتمتُّ بأية صلة بالحركات السماوية .

ولأحد أولئك الملوك شأن خاص. وهو السابع ويسميه « بيروز» إيفيدو

(٤) في لوحة بابلية نشرها «س. لانّفدون» عام ١٩٢٣ رواية مماثلة لما نقله لنا بيروز وهي تتعلق بملوك ماقبل الطوفان. ومجموعهم ثمانية حكموا ٢٤ قرناً. «المؤلف».

راخــوس » Evédorokhos. وعُثِـر على اسمـه في النصوص البابلية على شكل « إيفيدورانكي » Evédoranki. ويقولون ان هذا الملك تناول العلم من الإلهيْن « شَمَش » وحــدد. ـ لقـد أهمل البابليون « أوانيس » وربما كانوا لايعرفونه ـ ونقله إلى الشعوب الميزوبوتامية وهو علم قائم بنفسه ويسمونه « العرافة » .

عرفنـا الآن ان البشر خلقوا ليخدموا الآلهة وأن هؤلاء يعاقبونهم لأتفه الذنوب. فعليهم أن يطيعوا رغبات السماء بكل دقةٍ وأن يلبوا نزواتهم .

كيف يعملون إذن كي يحافظوا على هذا الوفاق ويتجنبوا غضب الآلهة؟ واذا مارأوا أحـلاماً ـ ان الآلهة يوحون مايخطر لهم بواسطة الأحلام ـ فكيف يفسرونها بصورة ترضيهم ، هذا إذا كان هناك أحلام فكيف إذا لم تكن؟

الجواب : يعمدون إلى الإرهاصات والدلالات الطبيعية فهي ترشدهم إلى الحقيقة . ولذا يجب الانتباه الكلي ليس إلى تغيّرات القمر فحسب بل إلى شكل الغيوم ، فكل حركة وكل تنقل من الزاحفة تحت العشب حتى الكواكب السـابحـة في ميدان النجوم تعطي اشارة لارادة الآلهة سواء أكانت حسنة أم سيئة. وهنا يُظْهر الفن أو العلم عبقريته فيميّز إذا كانت الارادة خيّرة أم لا . وعـلى السَّحَرة أن يتدخلوا إمّا ليعجلوا مجيء الحظ السعيد واما لدفع القوى المعادية التي تهدد الحياة ، وليس المقصود حياة الأفراد أو عامة الشعب بل حياة الملك الذي يناط به مصير الأمة بأسرها .

وهذا الملك الذي أودعته الآلهة العلم كان ـ كما مر ـ السابع من دولة ماقبل الطوفان . فهو يطابق حسب الترتيب الوراثي إلى « أخنوخ » (ادريس) الذي يشغل المرتبة السابعة من سلسلة آدم[٥] ـ سلسلة الأنبياء ماقبل الطوفان ـ ومن الملحوظ أنه لايوجد أي اشتراك بين الاسمين مع أن أعمالهما واحدة تماماً .

(٥) نستطيع أن نقارن في مسألة اخنوخ مع نمرود الذي تحدثت عنه التوراة (تكوين الاصحاح العاشر عبـارة ٨ إلى ١٠). ونسجت حول نمـرود هذا أسـاطير مختلفـة عنـد اليهود ثم عند المسلمين. «المؤلف». إن كلام التوراة في الاصحاح المذكور هو: «وكوش ولد نمرود الذي ابتدأ أن يكون جباراً في الأرض الذي كان جبار صيد أمام الرب، لذلك يقال كنمرود جبار صيد أمام الرب. وكان ابتداء مملكتـه «بابل» و«أرك» و«كلده» في أرض «شنعار» من تلك الأرض خرج «أشور» وبنى «نينوى» و«رحوبوت عير» و«كالح» و«رسن» بين نينوى وكالح هي المدينة الكبيرة. «المعرب».

والحق يقال ، إن النص التوراتي المتعلق بسابع الأنباء (أخنوخ) موجز جداً . قال : « وسار أخنوخ مع الله ولم يُوجَد لأن الله أخذه»[٦] . وقد أصبح أخنوخ بطل حلقة من الأساطير جعلته مخترع الكتابة ومؤلف أول كتاب وموجد علم الكواكب والسيارات : علم الفلك وكل الفلكيات . فهو يبدو وكأنه « فيدورانكي » . ونستطيع أن نتقبل بارتياح بأن أسطورة اليهود هذه ليست إلا نقلاً أو توسعاً للأسطورة الكلدانية التي هي أقدم[٧] .

وبين بقية الملوك والأنبياء ـ اسلاف « إيفيدورانكي » و « أخنوخ » الستة وخلفائهم الثلاثة ـ صفات مشتركة ، ولايهمنا إلا الشخصية العاشرة التي عايشت الطوفان .

الطوفان

ثار البشر ضد طغيان الآلهة واهملوا واجباتهم أو انهم ارتكبوا الكثير الكثير من الموبقات والآثام ولاسيما الفضول مثل الفضول الذي أطاح بآدم . فمن المحتم ليس معاقبتهم بشدةٍ فحسب بل ملاشاتهم ومحوهم من الوجود ـ ماعدا شخص واحد كان مستقيماً هو « أُومْ نِابيشتي » Oum Napishti ـ وابدالهم بقوم آخرين أكثر إطاعة . والدرس القاسي الذي يبيّت لهم يكفي لكبح جماحهم ويكفل خضوعهم التام .

هذا هو رأي « بِلْ » إله الأرض ففتح بالخفية عن بقية الآلهة جميع سدود السماء على مصراعيها . ولما رأت عشتار هذا المنظر الرهيب أرسلت صرخة قوية : « ألم اخلق البشر إلّا ليملأوا البحر كالأسماك » .

ولكن ماحدث قد حدث ، . فنشطت العناصر من عقالها حتى ان الآلهة أنفسهم خافوا من الغرق فصعدوا حتى أعلى سماء وهناك انطووا « مثل

---

(٦) السلسلة : آدم ، شيث ، أنوش ، قينان ، مهللئيل ، يارد ، ثم أخنوخ . «المعرب» .

(٧) الاصحاح الخامس من سفر «تكوين» عبارة ٢٤ ، وعند المسلمين أن الله رفعه مكاناً عليّاً . وعلم الناس كل شيء . «المعرب» .

الكـلاب » . لقد تجاوز « بل » بحقده كل المعايير . إذ ليس البشر وحدهم بمهدّدين بل الآلهة أيضاً في أكبر الخطر .

انتهى زمن الـطوفـان وعادت المياه إلى مجاريها الطبيعية . وخرج « أوم نابيشتي » من السفينـة ليقدم قربان الشكر واطمأن الآلهة واستنشقوا الرائحة الطيبة ـ رائحة القربان ـ فأسرعوا كلهم وتجمعوا « مثل الذباب » حول عابدهم الوحيد والباقي .

لقد وجد ، وليس منذ زمن بعيد ، في أمكنة مختلفة من بلاد « كلده » آثـار واضحة جداً من الفيضانات التي حدثت ـ كما يبدو من مستوياتها ـ في عصـور عريقـة بالقـدم . وكثير من المؤلفين فكّروا بأن هذه الفيضانات يعود تاريخهـا إلى الطوفان ، أو بعبارة أخرى : إن هذه الآثار تثبت الحقيقة التاريخية لهذا الحدث الخطير . ولكن عندما نتحقق الأمر نلاحظ أن طبقات الفيضانات ليست كلها على مستوى واحد ولاتدل على فيضان واحد بل على اثنين ـ اثنين على الأقل ـ منفصلينْ عن بعضهما بعدد من القرون .

وليس من المستغرب أن يحدث في تلك البلاد التي ترتفع قليلاً عن سطح البحر أمثال هكذا احداث ، من نوع المدّ والجزر ، التي تترك في عقلية السكان وعلى وجه الأرض آثاراً لاتقبل المناقشة . ومن الحق أن نقول بأن هذا المبدأ هو الأصـل لجميع الأسـاطـير المتعلقـة بالـطوفـان وإن هذه الذكريات المختلفة تدحرجت عبر القرون وتجمعت واختلطت ببعضها البعض وشكلت وحدة تامة ذابت كلها في كارثة واحدة دُعِيت ، ذات يوم ، بالطوفان العالمي .

إذن لقد هدأت العاصفة الرهيبة وعادت الآلهة، كل إلى مكانه ولم يبق على وجـه الأرض إلاّ كائنـان حيّان : الملك العـاشر « اوم نابيشتي » وزوجه اللذان نقلهما الإله « بِل » الواحد بعد الآخر إلى بلدٍ بعيد جدا عن هذا العالم الأرضي ، إلى « منبع الأنهر » حيث يتمتع الزوجان بنعيم دائم مكافأة لهما على استقامتهما . ولكن بينا الرواية التوراتية تقول : « إنّ نوحاً وزوجه أوجدا بشرية ثانية خلفت البشرية المنبثقة من آدم وحواء ، فإننا لانرى في الأسطورة البابلية

أن أوم « نابيشتي » وزوجه أنجبا بشراً . وسنتكلم فيما بعد عن ذريته ولاسيما عن واحد منها هو المسمّى جلجامش[٨] .

على أي حال، فقد أصبح معلوماً بأن «أوم نابيشتي» بقي وحده من بين جميع الناس يشارك الآلهة ولاأحد غيره[٩]. ولكن ظهر شجعان من البشر غزوا السماء واستطاعوا بأن يكونوا ولو لمدة قصيرة قريبين من الوصول إلى مرتبة الألوهية. ومن هؤلاء البطل « أدابا »[١٠] . وإليكم قصته .

أسطورة « أدابا »

كان « أدابا » يسكن مدينة « ايريدو » في أقصى جنوبي « كلده » على ضفاف الخليج العربي ، أو كما كانوا يقولون : « النهر المز » . وبما أن « إيريدو » كانت مخصصة لعبادة « إيا »، كان « أدابا » من زمرة عبيد إله البحر (إيا) الذي كان ـ كما نعلم ـ إله العلم . وكان « أدابا » لايشغل مكاناً رفيعاً بين كهنة « إيريدو » ولذا كانوا يستخدمونه في عمل الخبز لاغير .

وبما أن « آدابا » كان عبداً مخلصاً ومستقيماً فقد صمم معلمه « إيا » أن يعلمه كل مايعلمه ـ دلالة على رضاه منه ـ . فأصبح « أدابا »، أسمى مرتبة من غيره . وعندما يفرغ من عمله وينصرف إلى لهوه كان يذهب لصيد السمك

---

(٨) إذا كان نوح قد ترك ذرية فإنه يجب أن يموت ـ كما مات أسلافه ـ ماعدا أخنوخ ولكن «أوم نابيشتي» ظل خالداً إلى الأبد ـ كما جرى فيما بعد للنبي ايليا. «المؤلف».

(٩) ومع ذلك نرى وفقاً لبعض الروايات المتوارثة والغربية جداً عن ملحمة جلجامش ملك أوروك بأن هذا قبل أخيراً في عداد الآلهة، إذ نراه ـ فيما بعد ـ يشارك شمس في محاكمة الموتى. «المؤلف».

(١٠) إن نص أسطورة «أدابا» لم يُعثر عليه في ميزوبوتاميا بل في مصر العليا وقد وجد بين آثار قصر «أمينو فيس» الرابع في تل العمارنة. هذه الأنشودة الطويلة كانت من ضمن مكتبة الكتبة البابليين المرتبطين بديوان استشارة فرعون والذين كانوا يكاتبون بقية البلدان الأسوية، ليس في أشوريا وكلدة فحسب بل أيضاً في فلسطين وسوريا حيث كانت اللغة البابلية هي الرسمية منذ القرن الرابع عشر ولمدة طويلة. «المؤلف».

من مياه النهر المر . وذات يوم وبينما كان بعيداً وبعيداً جداً عن الشاطىء هبت ريح الجنوب فجأةٍ بعنف شديد فغرق مركبه ولم ينج « أدابا » إلا بأعجوبة . فاستشاط غضباً من ريح الجنوب ـ الذي كان يسمّى « شوتو » وهاجمه ونشبت معركة هائلة بين الاثنين انتصر فيها «أدابا» فقبض على «شوتو» وكسر أجنحته لأنه ـ كبقية آلهة الرياح ـ كان له شكل طائر كبير. وخلال سبعة أيام ـ أسبوع كامل ـ لم تسمع لريح الجنوب أية نأمة . ولما تقصّى « آنو » إله السماء عن سبب هذا الهدوء ، قيل له: « يامولانا! إن خادم « إيا » كسر أجنحة « شوتو » .

عندئذ أرسل « آنو » مبعوثاً إلى الأرض بسرعة فائقة ليجلب « أدابا » دون توقف إلى ساق عرشه . ولم يستطع « إيا » أن يمنع عدالة « آنو » من أن تأخذ مجراها . وبما أن الحدث خطير جداً ، تقدم لمساعدة تابعه المفضّل وأرشده إلى الفخاخ التي ستنصب له في طريقه وكيف يتخلص منها . قال له : « عندما تصبح في حضرة « آنو » سيقدمون لك طعام الموت ، فلاتذق منه لقمةً واحدة ، ويقدمون لك شراب الموت فلاتشرب منه ، ويقدمون لك ثوباً فارتده ويقدمون لك زيتاً فامسح به جسمك » .

وبعد هذه التعليمات صعد « أدابا » إلى السماء ـ ولاندري بأية وسيلة ـ واستجوبه « آنو » وسأله لماذا كسر جناحي شوتو . فقص عليه ماحدث وأنه كان في حالة الدفاع عن النفس . فقبل « آنو » أعذاره أو تظاهر بقبولها وصرّح بها أن « إيا » أعطى العلم لآدابا فهو (إيا) سيعطيه الخلود . فأمر خدمه بأن يقدموا له ثوباً وزيتاً . وكما أوصاه سيده ، لبس الثوب ومسح جسمه بالزيت .

ولكن هاهو إله السماء يأمر بتقديم غذاء الحياة وشراب الحياة ، فتذكر « أدابا » قول « إيا » : « سيقدمون لك طعام الموت وشراب الموت فلاتقربهما » وبما أن « إيا » هو مولاه المباشر عليه أن يطيعه أولاً ، ولذا رفض تناول الغذاء والشراب لأنه ظن أن « آنو » نصب له شركاً ليقتله بدلاً من أن يهبه الخلود .

فقال « آنو » وقد امتلأ غيظاً : لِمَ لم تشرب ولِمَ لم تأكل ؟ فأجاب « ادابا » بكـل سذاجة : ذلك لأن سيدي « إيا » قال لي : « عندما تصبح في حضرة

« آنو » حذار أن تأكل خبزاً وأن تشرب ماءً يقدمان اليك ، لأنهما غذاء وشراب من يموت » .

ولما سمع رب السماء هذه الكلمات أمر حدمه بطرد « أدابا » المتمرد من حضرته وباعادته أو برميه إلى الأرض .

وهكذا نرى أن « أدابا » الذي كان يملك العلم أو شك أن يكتسب الخلود ـ كما يقال ـ ولكنه بسوء تصرفه وغبائه أو باطاعته العمياء لسيده أضاع الفرصة المتاحة ـ الوحيدة ولاريب ـ فعاد إلى « إيريدو » صفر اليدين ليتسلم وظيفته السابقة . فكان كغيره ضحية اختلاف الآلهة . إذ بين تلك الأوامر المتضاربة ـ كل يجره إلى ناحية مختلفة ـ احتار ولم يعرف كيف يختار .

ولكن هل كان مخيّراً حراً ؟

أسطورة « إيتانا »

يروون أيضاً : ان ملكاً يدعى « إيتانا » كان يخدم نسراً . وقد تفانى في خدمته وقدم له كل مايحتاجه . فتأثر النسر وطلب منه : « أي مكافأة تبغي؟ » وكان الملك يتوق إلى شيئين لازمينْ له هما : شعائر السلطة التي تسمح له أن يوطد ملكه ، وعشْب يسمى « عشب تسهيل الولادة » ليقدمه لزوجته التي هي في حالة الوضع . ولكن العشب والشعائر موجودة في السماء فرأى الفرصة سانحة لأنه مضطرب في كلا الأمرين . ولذا قبل بكل سرور وطلب من النسر أن يرفعه وينقله إلى مقر الآلهة .

ربط ، إذن ، « إيتانا » نفسه إلى عطفيْ حامله وكلما صعد به إلى الأعلى كان الملك لايستطيع أن يخفي دهشته ، لقد رأى الأرض تصغر شيئاً فشيئاً حتى أصبحت في نظره مثل جبل ورأى البحر كبركة . ووصلا إلى سماء آنو ، وبعد استراحة قصيرة واصلا الارتفاع ـ إذ يجب عليهما أن يصعدا إلى سماء « عشتار »

لأن هذه تملك النبتة العجيبة ـ وبعد ست ساعات من الطيران أصيب « إيتانا » المسكين بالدوار فأفلت يديه وسقط على الأرض بغباوة[11] .

لقد ارتكب « إيتانا » ولاشك بعض الأخطاء فعاقبته الآلهة ورفضت أن تقدم له شعائر السلطة والعشب الذي يؤمن له الذرية . وهكذا كان طموح « إيتانا » أقل من طموح « أدابا » وان كانت جرأته أقل نوم . ثم ان الفرصة التي اهتبلها ليست ممتازة فكان عليه أن يقوم بعمل آخر وذلك لإيجاد سلالات المستقبل .

الالهة « عشتار »

إذا كانت آلهة « كلدة » كثيرة وإذا كان البعض منها قد تورط في مغامرات أو شارك في مؤامـرات ـ كما رأينا من قبل وكما سنرى ـ فإن عشتار هي الربة الوحيدة التي لها صفاتها الشخصية . أما غيرها من الإلهات ليست إلا أسماء بدون شخصية . وماهذه الأسماء الا اشتقاقات لغوية ، وهذه الآلهات مظاهر لها . مثلاً : لانعرف الإلهة « أنتو » الا بالاسم فقط ـ ولاعمل لها ـ وببعض الكنايات كأم الآلهة وزوجة « آنو » وأم « عشتار » . ومن المظنون : إن البابليين ليسوا بأكثر معرفة منا عنها .

ونحن لانبحث عن معنى اسم « عشتار » ولا عن ماهيته . فهذه محاولة قام بها الكثـيرون ، وكـانت النتيجـة أقل بكثير من الجهد . ومع ذلك فإننا سنعرف ماهو المقصود من هذيْن المقطعيْن (إيش ـ تار) من المؤكد انها كلمة مختصرة تعـبر عن احـدى مظاهـر الشخصية . كما قالـوا عنهـا مع كثـير من الصواب : « إن الكلمات علامات واشارات وليست تعاريف ؛ والأسماء مثل الكلمات » .

---

(١١) قصة «إيتانا» تمثل أقدم حالة عرفتها رواية الإنسان الذي يريد أن يغزو السماء. وفي الغرب ـ في القرون الوسطى ـ نرى الاسكندر الكبير بطل رواية غزو السماء، انظر ميليت Milet في مجلة سوريا ١٩٢٩ عدد ٤ صفحة ٨٥ ومايتبعها. «المؤلف».

وإذا كان لاسم عشتار علاقة جد وثيقة ـ علاقة اشتقاقية ـ بينه وبين كلمة «astre» [١٢] (في السنسكريتية سْتار stare وفي اليونانية أسْتير aster) فمن الثابت أن ينطبق تماماً على الربّة عِشتار Ishtar المتجسدة في كوكب الزُّهرة Vénus . ولكن من يستطيع أن يؤكد بأن هذا هو الانطباع القديم للربة. أو نقول: إن عشتار كانت تتمثل أو تتجسد بكوكب ثم تنزل بعد ذلك من عليائها إلى الأرض لتشترك في حياة العالم ولاسيما بحياة البشر فتشرف على غرامياتهم أو على معاركهم ، لاريب من ان عشتار لم تكن تشبه كوكب الزهرة فحسب بل كانت متجسدة فيه ، ولها شكل إنساني . وإن لم تكن إلهة أم فهي متعلقة بالحياة. بل كانت الحياة نفسها، الحياة المتجسدة أو المتألهة .

وإذا كان اسم عشتار أجرى على الألسنة وأكثر استعمالاً في النصوص القديمة فان لها أسماء وصفات أخرى لم تزل غامضة . وكل اسم وكل صفة تطابق دوراً خاصاً تقيم به الربة العظيمة في مناسبة ما .

ويجب أن نذكر ان اسم عشتار يُطلق على إلهة ، ومع ذلك ليس باسم مؤنث . ففي بعض أقطار العالم السامي ـ بلاد العرب الجنوبية ـ كان هذا لايُطلق على ربة بل على رب .

ويوجد الكثير من الأمثلة في تغيير الجنس ـ التذكير والتأنيث ـ بين آلهة الأساطير ولاسيما للالهين الشمس والقمر . وبما اننا نتكلم عن عشتار فهي مؤنثة عندما تمثل نجمة المساء وهي مذكرة في مظهر آخر أي عندما تمثل نجمة الصبح .

إننا لانعرف الكثير من أساطير عشتار ، والذي نعرفه فصول منفصلة عن بعضها ، أما الرابط بينها فهو غير واضح تماماً . ومهما كان الأمر ، فإن سرْدَ تلك الفصول صعب جداً ، إذ كل سرْدٍ لأية أسطورة قديمة ليس بالسهل .

في أسطورة جلجامش ملك « أوروك » نجد مانستطيع أن نسميه « رواية عشتار » أو « تاريخ غراميات عشتار ». قالت الأسطورة : بعد أن انتصر

(١٢) عرّبنا كلمة Syllabe بمقطع ، إذن عشتار Ishtar مؤلفه من عِشْ وتار Ish et tar «المعرب».

جلجامش على مارد جبل الأرز عاد إلى عاصمته فاغتسل وغسل سلاحه وشحذها وارتدى ثوباً أنيقاً جديداً وأسدل شعره على كتفيه وأحاط جبينه بتاج . وبرز بكامل جماله . فحدث ان نساء البلاد لما نظرنه افتتنّ به كل الافتتان حتى ان عشتار نفسها شغفها حباً . فخاطبته بعد أن ملأت عينيها منه وقالت : « تعال ياجلجامش وكن زوجي ، فأهبك عربةً من لازورد وذهب تقرن إليها أجمل الخيول وأضخمها وتدخل قصري وعندما تدخل يركع عند قدميك السادة والأمراء والملوك ويقدمون لك ـ برهاناً على خضوعهم ـ محاصيل السهل والجبل . . . »

ما كان موقف جلجامش من جميع هذه المغريات ، أو كما يقال ماكان رد الفعل عنده ؟ كان رد الفعل غير منتظر. لم يستجب ملك أوروك ولكنه رفض بسرعة وبكل عنف كل مقترحاتها. ووبخها بعبارات حماسية على تقلبها وخياناتها الماضية ؛ لأنها لم تحب أحداً إلا ونبذته ولم تكتف بنبذه بل حوّلته إلى حيوان ولاحقته بحقدها حتى النهاية ، ماعدا «تموز» فقد كان حبيبها الأول الذي صدقت له .

ولكن « تموز » (أدونيس) اختفى بعد قليل من الزمن ، والشاعر (مؤلف الاسطورة) لم يذكر كيف مرت الأحداث ولكنه يذكر انها أمرت ـ دليلاً على وفائها وحزنها ـ الناس والطبيعة كلها أن تبكي الإله الشاب كل سنة .

وأحبت عشتار بعده شخصاً آخر . وسرعان ماحوّلته إلى طائر[١٣] لكي تنتقم لإهانة صدرت منه . ولم تكتف بل كسرت جناحيه ، فقبع المسكين البائس في أعماق الغابات يصرخ دون انقطاع : « ياجناحيّ ! ياجناحيّ » . ومعنى هذا في البابلية : « كابي ! كابي !» ويبدو أن جل هَمِّ هذه القصة هو تفسير صوت بعض الطيور ، صوت يشبه كلمة « كابي » . وربما كانت هذه فكرة الشاعر لاغير . لكن من يستطيع أن يؤكد ذلك .

وكثيرون شُقوا من تقلبات عشتار ، فهذا حولته إلى أسد وذاك إلى حصان

---

(١٣) يقول الأستاذ عبد الحق فاضل في ملحمة جلجامش بأن هذا الطائر هو الشقراق. «المعرب».

والثالث الذي كان راعياً مسخته إلى فهد . وجعلت كلابه (كلاب الراعي) تلاحقه بكل شراسة حتى مزّقت بأنيابها جلده ولحمه .

كان جلجـامش يعرف كل هذا فأعتبر بغيره ولذا رفض عرض عشتار وأجابها دون دوران في نهاية كلامه : « ستحبينني ولاشك ثم تحولينني بعد ذلك إلى حيوان » وبالاختصار فليست عشتار هذه ـ كما يظهرها شاعر جلجامش ـ إلا نوعاً من « سيرسي[١٤] » ولايريد جلجامش أن يكون حظه حظ رفاق « أوليس[١٥] » .

نزول عشتار إلى الجحيم

بين أساطير ميزوبوتاميا القديمة كان نشيد نزول عشتار إلى الجحيم أوسع انتشـاراً ـ في ذلـك الزمن ـ والمستند قصير جداً لم يطرأ عليه أي تلف لحسن الحظ . ومع ذلك فالدلالة الحقة والتناول الواقعي بعيدان عما جرى من أحداث وذلك لكثرة الشرّاح المختلفين .

يروون أن «عشتار» أحبت ذات يوم أن تهبط إلى عالم باطن الأرض إلى تلك البلاد التي ـ كما يقول شاعر الاسطورة ـ لم يَعُد منها أحد والتي يعيش فيها الموتى ـ أو الأرواح ـ بكل شقاء ، محرومون من النور ، وطعامهم التراب الذي دُفنوا فيه .

وصلت « عشتار » إلى عتبة باب عالم الظلمات وأمرت حارسه أن يفتح لها . ولكن هذا يأتمر بأوامر « إيريشكيغال » Ereshkigal ملكة الجحيم ، ولذا تردد لابـل قاوم لأن مولاته لم تخبره مسبقاً بزيارة أختها . فأرعدت « عشتار » وأبرقت وهددت بكسر الباب ، لأنها تريد أن تدخل . وستدخل .

(١٤) سيرسي Circé ساحرة لها دور كبير في ملحمة أوديسّا لهو ميروس، لجأ أوليس إلى جزيرتها. فأحبته ولكي تحتفظ به سقت رفاقه شراباً سحرياً فاستحالوا إلى خنازير صغيرة. «المعرب».

(١٥) أوليس Ulisse ملك أسطوري يوناني كان في مدينة «إيتاك» وهو أحد أبطال حرب طروادة، أشتهر بيقظته وسعة حيلته، وهو والد «تليماك». «المعرب».

لماذا تريد « عشتار » أن تدخل عنوة وتصر على الدخول خفية عن أختها ؟ هي نفسها تجيب: كي تخرج الموتى إلى مافوق الأرض ، لا لتنقذهم من بؤسهم ولا لتعيدهم إلى الحياة وترجعهم إلى النور ـ كما كانوا يفكرون ـ ولكن « ليأكلوا الأحياء » ، فهؤلاء يتكاثرون ويعملون فاذا ماقلّ عددهم سهلت لهم الحياة . ولذا صرّحت : « إن الأحياء أكثر من الموتى » . فيجب أن تتخلص منهم (من الأحياء) .

قبلاً في زمن الطوفان، كانت عشتار تدافع عن الجنس البشري أمام أخيها « بلْ » . أما الآن فهي تريد أن تمحقهم وتمحوهم من الوجود وذلك بتسليط المَوتى عليهم . وللوصول إلى غايتها جاءت تستنجد بالقوى المظلمة الموجودة في باطن الأرض .

غضبت « إيريش كيغال » من هذه الزيارة المفاجئة ، ولكنها وافقت بعد جدال صارخ على دخول اختها عالم الجحيم ، شرط أن تخلع (عشتار) عنها كلما تخطت باباً ـ وللجحيم سبعة أبواب ـ وعلى التوالي تخلع : تاجها وعقدها ومنطقتها وملابسها ثوباً بعد ثوب .

قبلت هذه مضطرة بكل مافرض عليها واجتازت الأبواب باباً باباً . ولما وصلت إلى وسط المكان ، رأت نفسها عاريةً من كل قوة فهي لاتحمل شيئاً حتى ولاشارة واحدة من شارات السلطة . فهي ـ كما يقال ـ منزوعة السلاح . لقد سقطت في الشرك وأصبحت سجينةً . ولكن مع من؟ مع الموتى . فهي والحالة هذه من عدادهم .

وبما أن غيابها قد طال في باطن الأرض ، فإن الحياة تعطلت من على وجه الأرض وبطلت . فالمواسم لاتنضج ، لقد ذبلت النباتات وعقمت الكائنات من بشر وحيوانٍ ، فلاينسلون . الخراب يهدد العالم؛ إن مكان « عشتار » على الأرض لا في مملكة الظلام . والبرهان واضح . وليست هي وحدها المهددة بالزوال ، بل الكون بأسره .

وأرسلت « إيريش كيغال » تُعلِم الإلـه « إيا » . فأمـر هذا أن تعـود « عشتار » إلى سطح الأرض دون إثارة الموتى على الأحياء . ومن نفس الطريق التي سلكته ، شريطة أن تعاد إليها أثوابها وشاراتها كلما اجتازت باباً . وما ان ظهـرت الإلهة ، حتى تفتحت الحياة من جديد . ولايجوز أن يبقى من هذا الحدث الخطير إلا ذكرى قلقٍ كبير .

وهكذا فشلت « عشتار » وفشلت خطتها في إثارة الأموات . ونقول بأنها كانت تجهـل قبـل نزولهـا إلى الجحيم حالـةَ تلك الأرواح ومايقاسونه من ألمٍ وشقـاء . إنهم كثـيرو العـدد ولكن لاحـول لهم ولاطـول . فما الجدوى من كثرتهم ؟ وقد يتألمون عندما يقترف أحد أبنائهم ذنْباً أو يمتنع أو يُمنَع من أن يسكب الخمر على القبر .

لقد تأكد هؤلاء من أنهم يعيشون بعد الموت ـ ولكن في ظلام دامس ـ وليس لهم أي ثواب ، إلاّ إذا سلكوا السلوك الحسن في دار الدنيا ؛ أي بالتقوى كما حدث « لأوم نابيشتي » أو بتطبيق القوانين بين الناس كما فعل « حمورابي » .

جلجامش

في سنة ١٨٤٣ بفضل المبادهة الأولى التي قام بها «بول إميل بوتّا » سفير فرنسـا في المـوصـل ، اكتشفت آثار نينوى عاصمة اشوريا ، ومن ثم بدأت الحفريات فظهرت نتائج باهرة ، ولكن « بوتا » توقف عن التنقيب لقلة المال .

واستؤنفت الأبحاث من قبل علماء آثار انكليز وسرعان ماظهر للوجود كنز ثمـين : المكتبة الضخمة التي أقامها « أشور بانيبال » آخر ملوك « أشوريا » العظام خلال حكمه الطويل (٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق.م) لقد اكتشفوا (٢٠٠٠٠) لوحـة من الفخـار المحروق وحملوها إلى لندن وهناك عكفوا على فك رموزها وتوصلوا إلى قراءة كتابتها وترجمتها ـ كانت مكتوبة بالخط المسماري ـ ووجدوا بين هذه الـوثائق فصولاً متنوعة للملحمة شعرية تقع في اثنيْ عشر نشيداً ، بطلها « جلجامش » أو « جلقامش » .

ومن عام ١٨٧٢ إلى ١٩٠٠ ، لم تكن أسطورة « جلجامش » معروفة إلا من طريق رواية أشورية تعود إلى القرن السابع ق . م ولكن منذ ذلك الزمن جمع الكثير من القطع ، البعض منها يعود إلى عهد حمورابي (القرن الثامن عشر ق . م) والبعض الآخر استخرج من قصر ملوك الحثيين في قلب «الأناضول» وتعود إلى القرن الرابع عشر ق . م .

وبمقارنة هذه القطع الأصيلة المتنوعة مع النص النينوي بدت معلومات قيّمة . ليس في سد الثغرات فحسب بل أظهرت تماماً بأن قصيدة « جلجامش » لم تكن على شكل واحد في عهد الآشوريين . وهذا برهان على ان الأسطورة تطورت بصورة ملحوظة عبر الأجيال . وبتعبير آخرفإن الكَتَبة لم يكتفوا بنسخ النص القديم بشكل أمينٍ وحرفي بل أضافوا وبتروا وحوّروا . وهذا مما يدل أو يشارك في الدلالة على أن « الفكرة » التي انتشرت ـ مع خطئها ـ بأن الشرق ماكان ولن يكون قط جامداً متكمشاً .

بطل هذه القصيدة الطويلة « جلجامش » . وكان يعرف بغير هذا الاسم ، فقديماً ـ منذ ستين أو ثمانين سنة ـ كان يدعى « إزْدوبار » . وهذه التسمية جاءت نتيجة خطأ كبير في القراءة . أما الآن فقد تأكدت بصورة نهائية على « جلجامش » .

مامعنى هذا الاسم ؟ نستطيع أن نقول أنه غير قابل للتفسير بالرغم عما ورد من تخمينات عديدة . وعلاوة على ذلك ، يبدو من المستحيل أن تُعْزى هذه التسمية لاحدى لغتيْ « ميزوبوتاميا » في القدم : اللغة الأكادية التي تعود إلى الأسرة السامية ، واللغة السومرية المجهولة الأصل .

ومهما كان المعنى ؛ فإن هذا الاسم « جلجامش » كان معروفافي الزمن الغابر ؛ فنراه في « تاريخ الحيوانات » للمؤلف « إيلْيان » اليوناني من القرن الثالث ، على شكل « جلجاموس » . والقصة التي يعرضها « إيليان » هذا عن « جلجاموس » لاتمسّ من قريبٍ ولامن بعيد بما جاء في الملحمة البابلية . بل هي تشبه كثيراً أسطورة بطل آخرَ : « الملك إيتانا » . والظاهر انه حدث التباس

في مخيلته أو في مخيلة من أخذ عنهم المعلومات فخلط بين « إيتانا » و « جلجامش » .

وعلى رأي هيرودتوس » ، كان يوجد في ليبيا قبيلة تحمل اسم « جيل جيمّان ». وهو اسم شبيه بشكل مدهش لاسم « جلجامش » . ولكن لاشيء يؤكد علاقة اشتقاق هذا الاسم لسكان افريقيين من اسم البطل البابلي .

ولقد عرف المصريون - في الزمن القديم - الشخصية التي نحن بصددها. إذ عثر في وادي النيل في جبل الأراك على مُدْية شفرتها من صوّان لامن معدن ومقبضها من عاج تحمل على أحد وجهيْها صورة رجلٍ قائمٍ ممسك بكل وقارٍ ثوريْن قائمين واحد عن يمينه والآخر عن يساره . وهذا منظر نشاهده على عدد كبير من الآثار البابلية ويمثل عادة « جلجامش » في صراعه مع الحيوانات المتوحشة .

كان « جلجامش » صياداً كبيراً ومروّضاً للحيوانات المفترسة . ولذا شبّهوه بنمرود الشهير في سفر التكوين[١٦] (التوراة - تكوين - الاصحاح العاشر العبارة ٨ إلى ١٠). وحتى انهم ذهبوا إلى أنه هو نفسه . وظلوا مدة طويلة - في بدء هذه الدراسات - يسمون القصيدة « ملحمة نمرود ». والحقيقة : ان المقايسة بين الشخصين بعيدة جداً . فنحن لانعرف عن نمرود إلا ثلاث عبارات وردت في السِفْر المذكور . بينما نعرف عن « جلجامش » نصّاً طويلاً واسعاً ، - رغم الثغرات - لابل أطول بكثير مما أوجدته « ميزوبوتاميا » من ملاحم وأطول مما عرفه الشرق القديم وتركه لنا حتى في ميدان الشعر ، أو في مجموعة الشعر المستخرج من « رأس شمرا » .

ويجب علينا أن نذكر أن من بين المدن التي كان يحكمها « نمرود » مدينة « إيريك »، ويعتبرون - وهذا حق - إن هذه المدينة ليست إلا « أوروك » التي

---

(١٦) العبارة الواردة في السفر: «الذي كان جبار صيد أمام الرب، لذلك يقال كنمرود جبار صيد أمام الرب وكان ابتداء مملكته بابل وأرك وأكّد وارك وأكّد وكلدة في أرض شنعار». وقد مر معك. «المعرب».

كان « جلجامش » ملكاً عليها . إذن كان ملكاً أو بالحقيقة سيد احدى مدن « كلدة » القديمة . وتلك المدن ـ كما نعرف ـ مستقلة الواحدة عن الأخرى ولم تجتمع تحت صولجان واحد ؛ لكل منها نشاطها ومنافساتها وحروبها مع بعضها أو مع غيرها من مدن البلاد المجاورة ولاسيما مع عيلام أقرب جارة لها .

إذن توجد أسباب تجعلنا نؤمن بأنه كان يوجد في زمن قديم جداً[١٧] ملك اسمه « جلجامش » . وهذا الاسم مندرج في لائحة ملوك « أوروك » ـ كُشِفت حديثاً ـ ولكنه ليس في أول القائمة ـ كما ينتظر ـ . فجلجامش التاريخ لم يؤسس دولة بل كان في عداد ملوكٍ ـ لانعرف عنهم شيئاً من الوجهة التاريخية إلاّ أسماءهم .

ولكن ، أليس من المسلّم أن تكون بعض الأساطير أجدى من التاريخ ، أو إن صدق بعض الأساطير أسمى من صدق التاريخ ، وأشهر . هكذا قال الأثري الكبير « إدمون بوتْيه » من قبل ، وقوله حق ، فقد كتب ذات يوم بعد أن نقّب بدقة كعادته ، قال : « لماذا كان تيسيوس[١٨] صديقاً « لهِرقْل »[١٩] ثم استطرد في نهاية بحثه : « لاحظتُ ـ وأنا انهي بحثي ـ أنني لم أطرح سؤالاً يبدو لي انه هام جداً : هل وُجِد « تيسيوس » ؟ وعلى هذا السؤال لم يتردد « بوتيه » في الإجابة ، حتى لايشكك قرّاءه ـ: ومايهمنا ذلك ؟ فليس الأحياء هم الذين وجدوا بصورة مادية ، فإذا كان « تيسيسوس » و « أخيل » و « أوليس »[٢٠] و

---

(١٧) أكثر من أربعة آلاف سنة . «المعرب» .

(١٨) تيسيوس بطل يوناني ، نصفه تاريخي ونصفه أسطوري ، اشتهر بخروجه من المتاهة وقتل المارد «المينوتور» في كريت . «المعرب» .

(١٩) هرقل أشهر أبطال الميتولوجيا اليونانية ، قام بأعمال خارقة جداً . وهو ابن جوبيتر . «المعرب» .

(٢٠) مر ذكره . «المعرب» .

« دون كيخوت »[٢١] و « فيغارو »[٢٢] و « دون جوان »[٢٣] و« جيل بلاس »[٢٤] لم يوجدوا فهم كائنات لهم واقعية سامية يحسدون عليها . أليسوا أحياءً أكثر من آلاف الأشخاص الذين عاشوا وماتوا مغمورين » .

وعلى أية حال ، ليس « جلجامش » الذي كتب عنه التاريخ سطرين يسترعي انتباهنا ولكن « جلجامش » الذي وصلتنا اسطورته الشعرية .

ومن اللازم أن نقول : إن هذه الأسطورة كانت نتيجة أعمال فردية أو اجمالية من أبحاث عميقة شائقة. وقد حلت هذه الأعمال الكثير من العقد الصعبة ، ـ وإن كان قد بقي منها بعض المسائل معلقة ـ . فما علينا الا أن نأخذ ملحمة « جلجامش » بصورة عامة ونشير إلى توالي أحداثها وتسلسل فصولها الرئيسية ، شارحين ماغمض عند اللزوم ، ماأمكن .

كما عرفنا من قبل : إن « جلجامش » كان ملكاً على « أوروك » المدينة الواقعة في « كلدة » السفلى ، وقد اجتمع حوله عند ولادته جميع الآلهة ليهبوه أسمى الصفات وأثمنها : القوة والشجاعة والذكاء والجمال . فكان ـ كما قالوا ـ ثلاثة أثلاث : ثلثان إله وثلث إنسان . وكان الإله شَمَش (الشمس) يهتم به من بين جميع الخالدين . ـ ونعرف ان شَمَش كان يمثل العدالة أيضاً . أمّا أم « جلجامش » فكاهنة خاصة بالإله الشمس ولها قدرة على التنبؤ إلى مايحدث في المستقبل ـ . وذلك لأن إله العدالة يعرف المستقبل ويشاركه في هذه المعرفة « حدد » رب العرافين وموحي التنبؤات .

---

(٢١) شخصية وهمية أوجدها المؤلف «سرفانتيس» الاسباني، وذلك ليسخر من الفرسان التائهين، وأوجده ليندد وينتقد. «المعرب».

(٢٢) شخصية أوجدها الروائي الفرنسي «بومارشيه»، اشتهر بالذكاء والحيلة والتآمر والروغان والنجاة من كل مأزق وقع فيه، فهو ساخر وناقد لايرحم. «المعرب».

(٢٣) شخصية وهمية، مغامر، فخور، لامع، كافر، خليع، غاوٍ، ويمثل الحب المتنقل. «المعرب».

(٢٤) شخصية أوجدها الكاتب الفرنسي لِه ساج، شاب مثقف ذكي يعيش من مكاسب شريفة وغير شريفة، ينخرط في مؤامرات عن قصد وعن غير قصد. «المعرب».

جلجامش ومارد الأرز

انتصر « جلجامش » في كل معاركه ، ولم يخسر واحدة منها فذاع صيته وانتشر ذكره وعرف ذات يوم ـ ولاندري كيف عرف ـ أنه يوجد في منطقة جبلية بعيدة جداً عن « أوروك » مارد ، يعيش وسط غابة ـ غابة من الأرز ـ وقد أقيم في قلب هذه الغابة محراب للإلهة « إيرْنيني » . هذا المارد يسمى « حمبابا »[٢٥] ومهمته السهر على « إيرنيني » وعلى مصالحها لأنها هي التي وضعته في مكانه هذا . وهي إحدى الآلهة الثلاثة الكبار من الأرباب البابلية . احدها « بِلْ » أي المولى ـ وكان مولى الأرض ـ والاثنان الآخران من الثالوث الأكبر هما « آنو » الذي يحكم السماء و « إيا » الذي يأمر المحيط .

إذن ، مارد الأرز « حمبـابا » مخلوق « بِلْ » وممثله وبطله ، ولكن الإله « شَمَش » يكرهه لأسباب نجهلها تماماً . وكانَ في مقدوره أن يصرع هذا المارد لو لم يكن سيد الآلهة يبسط عليه حمايته ، وان سطوته لاحد لها . فأحب شَمَش أن يقـوم « جلجـامش » بهذا العمل. ولذا أوحى للملك « أوروك » وأنبت في رأسـه الفكـرة والرغبة الممتلئتين حماساً وجرأة ، فعليه أن يسافر ويغزو «بلاد الأرز » ويقتل المارد ، فيبعده عن الأذى لأنه كان يحرس المنطقة كلها ويدفع كل من يدنو منها .

« جلجـامش » شجـاع ـ كما نعـرف ـ وصديقه لابل أخوه في السلاح « انكيدو »[٢٦] لايقل عنه شجاعة ولاقوة . ولكن شهرة المارد جعلت « أنكيدو » يرفض في بادىء الأمر أن يتبع مليكه محتجاً ـ في نوع من الاعتذار ـ ويقول بأنه دنا مرة من جبل الأرز وسمع صوت المارد ورأى النار والشرر المنبعثين من فيه ؛

---

(٢٥) اسمه في ملحمة «جلجامش» «خمبابا» بالخاء . «المعرب» .

(٢٦) انســان ضخم يعيش مع الوحوش البرية ويأكل العشب ويرد معها الماء، روضته بغيٌ وقادته إلى «أوروك» فبارز «جلجامش»، فانتصر هذا عليه . وأصبحا صديقين لايفترقان . «المعرب» .

واللهب الخارج قاتل . وهو وصف موجز نستطيع أن نستنتج منه بأن الجبل الذي يحرسه « حمبابا » ليس إلا بركاناً .

ولكن تردد « أنكيدو » لم يثن البطل عما عزم عليه ولم يوقف حماسه ، سيسافر وحده إن لزم الأمر ، لأن سيده شَمَش أمره بذلك . سيسافر لغاية واحدة : « حب اشتهار اسمه »[٢٧] . ولقد عرضت المناسبة لكي يطير ذكره في الآفاق ولا يجوز أن يدعها تفلت من يده .

وأمام ثبات الملك وعناده رضخ أنكيدو وصمّم على السفر معه . وهكذا استعد الاثنان على عجل ، ووجّه « جلجامش » لإلهه شَمَش صلاة وجيزةً ولكنها حارّة ، رافعاً يديه نحو السماء بحركة طبيعية ـ وقد احتفظت آثار الشرق القديم بهذه الصورة ـ . ومن ثم انتقل إلى « مجلس شيوخ المدينة » . نصحه هؤلاء بعبارات مستوحات من يقظتهم : « أنت شاب وقلبك جريء وشهم ولكنك لاتقدّر مدى الأخطار التي ستحيق بك . نحن نعلم من هو « حمبابا » ، إنه مارد رهيب ، ولكي تصل إلى تلك الاصقاع عليك أن تمشي عشرين ألف ساعة » . وقالوا له أشياء أخرى ، ولكن « جلجامش » لم يصغ إليهم بل صرّح بعناد : « سأسافر وسأقطع الأرز وسأجعل اسمي خالداً إلى الأبد » .

وأمام هذه الارادة القوية نكّس الشيوخ رؤوسهم وباركوا الملك وأعربوا بأن الشمس تود أن تحمي خادمها الأمين شريطة أن يقدم قرباناً لإله النهار عند كل مساء ويجب أن يكون القربان ماءً طاهراً . ـ تقدمة متواضعة ولاشك ولكن ماعسى مسافر يستطيع أن يقدمه وهو يضرب في الصحراء أو في بادية الشام ، إذ من المعقول ن نقتنع بأن منطقة الأرز التي يؤمها «جلجامش» هي لبنان أو الأمانوس تلك السلسلة الواقعة في سورية العليا كامتداد لجبال فينيقية . ـ

وقبل أن يخطو خطوة واحدة ، ذهب لوداع أمه كاهنة الشمس وهي المعبِّرة

---

(٢٧) لقد حدث مثل هذا لأبطال هوميروس : «بين أسباب عملهم ، الشرف له المقام الأول ، اذ كلهم متعطشون للمجد والمديح» . «السيد كُروازيه Croiseh في كتابة الحضارة الهللينية وكذلك ملوك ايران القديمة التي تصفهم الشهنامة . وورلاند ، رونسفو كان يحب المجد حتى الجنون . «المؤلف» .

المـاهرة للأحلام والرؤى . والأحلام هي الوسيلة الأكثر مباشرة ـ إن لم تكن الوحيدة ـ مع الآلهة والتي تسمح لهم أن يوصلوا رغباتهم التي هي كأوامر لبني البشر . فالعصر عصر بطولي عصر « جلجامش » .

كانت الأحـلام تعرّف الناس بمراد الآلهة ، ولكن في العصر التاريخي كانت وسائل التنبؤات في « ميزوبوتاميا » كثيرة ومتنوعة . ولذا رتبوها وفسروا ارهاصاتها وفقاً لقواعد خاصة وألفوا فيها رسائل قائمة بنفسها . وقد ترك لنا البابليون فصولاً كاملةً عنها . وليس على المرء أن يتعلق بكل الأحلام فحلم منفرد أو عاجل لايسترعي الانتباه ، ولكن إذا تكرر الحلم أو بالأحرى حلمان متشابهان أو متممان لبعضهما ـ ولاسيما إن حدثا بتتابع فوري أو وقعا في ليلة واحـدة ـ فان ذلـك يعتبر كإنذار يحسب حسابه ، كما نرى في سفر التكوين (التوراة) حلميْ فرعون : سبع سنابل جاءت بعد سبع بقرات ؛ «فلأن الأمر مقرَّرٌ من قبل الله والله مسرع ليصنعه » . تكوين الاصحاح ٢٤ العبارة ٣٢) .

أمـا سرْد سفر البطلينْ من « أوروك » فمبتور تماماً . ولكننا نعرف أن « أنكيدو » وقع في مرضٍ مفاجيء ، مما أوقف الرحلة لأنه ظل طريحاً اثني عشر يومـاً وهـو بين المـوت والحياة . ولـما أبلّ حاسب نفسه ليعرف السبب وأخيراً عرف . فقال « لجلجامش » : « ذلك اننا عندما كنا في « أوروك » ترددت في السفر معك ، فأحب إله أن يقتصّ مني . » وهذا الاله الذي امتنع عن ذكر اسمه لم يكن إلا الإله الشمس « شَمَش » الذي عاقبه لأنه عارض مشيئته لأنه هو الذي أوحى بالفكرة لجلجامش .

وهكذا يبدو لنا أن مرض « أنكيدو » كان عقاباً أو على الأقل إنذاراً له . لقد كانوا يعتقدون أن كل مرض ليس الا قصاصاً على ذنب أو خطأ أو تقصير عن خدمة الأسياد ـ آلهة كلدة ـ ذوي النزوات .

واجتاز « انكيدو » هذه التجربة وواصل الرفيقان طريقهما . وأخيراً وصلا إلى أسفـل الجبـل جبـل الأرز . فاعجبـا بتلك الأشجار المنتصبة بفخارنحو

السماء . ولكن الرهبة خالطت هذا الإعجاب ، فظنا انهما وقعا في ضائقة فتوجها بصلاة ، ولكن ليست للشمس هذه المرة بل للجبل نفسه . وحفرا حفرة ألقيا فيها قبضةً من الدقيق وهما يقولان : « أيها الجبل هيىء لنا أحلاماً . » وأثناء نومهما رَأَيا كثيراً منها وظنا بعد يقظتهما انهما فهماها ولكن عبثاً . ولكن شَمَش ـ يبدو أنه كان قد تخلى عنهما ـ أسرع إلى نجدتهما . فأثار عاصفة هوجاء ألقت بالمارد أرضاً . فطلب العفو ـ ويظن ان « جلجامش » كان مستعداً للغفران ـ ولكن أنكيدو جدد الصراع وجعل المعركة تحتدم . وفي النهاية ـ رواية المعركة مبتورة ـ استطاع البطلان أن يقطعا رأس « حمبابا » الرهيب .

هذه هي القصة ولكن بالاختصار ، وهي تملأ في الملحمة الشعرية ثلاثة أناشيد من اثني عشر نشيداً . ولانعرف الغاية ولاالمقصود من هذه القصة أو الرواية . ومن المحتمل أن الشاعر لم يحب أن يُظهر هدفه ولذا امتنع عن كل شرح . أو ربما اعتبر الشرح ناقلاً . أو لعل النص الذي يقدم لنا مفتاح الأحجية منتزع .

ومع ذلك نلاحظ بأن المشهد الذي توالى عرضه أمام أعيننا قد حدث في منطقةٍ بعيدة جداً عن بلاد بابل وفي أرض جبلية مكسوّة بالأشجار الضخمة . وهذا يجعلنا نقول انها تختلف اختلافاً كلياً عن مسقط رأس « جلجامش » . وعندما دخل ـ وهو أول انسان بابلي ـ تلك النواحي أخذته الدهشة العارمة ، وليست دهشة جنود فرعون عندما طردوا « الهيكسوس » من الدلتا ودخلوا سوريا غزاة بأقل منها .

بالحقيقة ، لايوجد غابات في « كلدة » بل ستارٌ صفيق من النخيل يمتد على طول ضفاف الفرات ودجلة . بل هي بلاد تشكلت من الرواسب وكلها مستوية . وكما قيل من قبل : « خذ فأساً واحفرْ أينما شئت بين بغداد والبحر فلن تجد حصاة واحدة كبيرة مثل الجوزة » .

لم يغادر « جلجامش » مملكته الواقعة بمحاذاة الخليج العربي طلباً للشهرة والمجد ـ كما صرح ـ فحسب بل لأنه يريد أن يبحث عن شيء لايوجد

في « ميزوباتاميا » وذلك الشيء هو الحجر والخشب ؛ خشب الأرز والصنوبر وكل خشب البناء المتوفر في سوريا . فمثله في ذلك مثل المصريين . فكما ان المصريين جلبوا الخشب من لبنان فان الكلدان فعلوا ذلك .

لقد كان « جلجامش » الأسطورة وربما أيضاً جلجامش التاريخ أول من حمل الفأس إلى تلك البلاد وأقام محراباً ليتعبد فيه ويدعو « إيرنيني » . ومن الحق أن نقول : إننا لانعرف عن هذه الإلهة إلا الاسم ، ولكن إقامة محراب في وسط غابة تذكرنا كيف كان أنبياء اسرائيل يقيمون المحاريب في الأمكنة العليا ، وتذكرنا أيضاً بالكنعانيين كيف كانوا يتعبدون لبعْل وعشتروت في تلك البقاع .

وإذا كانت المسألة ـ في أسطورتنا هذه ـ لاتتعلق بشجرة معرفة الخير والشر[٢٨] فإنها في قضية غابة تقدم الضرر لبعض والخير لبعض ، الضرر أو الشر « لشَمَس » والخير « لِبل » . ومن هنا يتولد لدينا انطباع من قراءة الأناشيد من ثلاثة إلى خمسة بأننا أمام مذهبين أو حضارتين : حضارة « ميزوبوتاميا » وحضارة سورية أو مذهب السهل ومذهب الجبل .

« جلجامش » والثور السماوي

رأينا فيما تقدم الأسباب التي جعلت من « جلجامش » يرفض بشدة جميع طلبات « عشتار » . فعوّلت هذه على الانتقام الفوري لتلك الإهانة التي أُلْحِقت بها . فصعدت إلى السماء لتطلب من أبيها « آنو » أن يخلق ثوراً ضخماً ـ وقد سُمِّيَ الثور السماوي ـ فيهبط إلى الأرض ويدمّر « أوروك » ويقتل السكان وفي مقدمتهم « جلجامش » .

ويجب على هذا الثور أن يحدث ضرراً فادحاً في المحاصيل وفراغاً هائلاً بين الاهلين . فهب « جلجامش » بمساعدة « أنكيدو » للدفاع عن مملكته وعن نفسه . وتمكن الاثنان من الإمساك بقرنيْ الثور وشقّا جوفه واستخرجا قلبه ووضعاه « أمام الإله الشمس » كما هو وارد في الاسطورة .

(٢٨) الشجرة التي أكلت منها حواء وأطعمت آدم . «المعرب» .

لقد وضع « جلجامش » قلب الثور أمام الإله شَمَش ليبرهن عن خضوعه أو ليفيَ بنذره . ولكننا نرى في هذا الفصل بأن شَمَس لم يسرع في التدخل لمساعدة من يحميه . ويقال إنه انحرف عن ملك « أوروك » لتصديه « لعشتار » ولإهانتها . فيكون هو السبب غير المباشر ، فجلجامش يأتمر بأمرها .

عندما شرع علماء الآثار في هذه الدراسات وذلك منذ أربع وعشرين سنة قالوا بأن أسطورة « جلجامش » تشتمل على دين شَمْسيّ . وبالفعل فان بطلنا خادم مخلص للشمس وكذلك فإن الاسطورة مؤلفة من اثني عشر نشيداً والبروج التي تجتازها الشمس مقسمة إلى اثني عشر برجاً ، فكل نشيد مختص ببرج . أما الثور السماوي - الذي تكلمنا عنه آنفاً - والرجال العقارب الذين يحرسون الغروب (مغيب الشمس) فيمثلون برجين هما : الثور والعقرب . واتفاق « جلجامش » و « أنكيدو » يذكرنا بالتوأمين « ديوسكور »[٢٩] في ميتولوجيا الاغريقيين ؛ والإلهة « إيرنيني » التي تقوم بدور شبه ممحوٍ - من الصعب تعريفه - لاتشبه هيلين أخت الديسكوريينْ التوأمين كاستور وبوللوكس ولدي زفس[٣٠] .

ويضاف إلى هذه التقريبات تقريبات أخر كتب عنها الكثير من المؤلفين - وكما أعتقد - وسيكتبون ، لأنها غير جامدة . وهنا نظرية أو مقصد قد أُهْمِل نهائياً ، وهو كما جاء عن « بوشه ليكرك » Bouchel Leclerc : « يجب أن يكون هناك أسباب آخر لتلك الظنون حتى نتقبل كل ماوصف به أبطال الملحمة الشعرية ، ولاسيما ماتحدث به الشاعر عن البروج الاثني عشر . » ومع ذلك يجب أن نضيف : إذا كانت أصول ملحمة « جلجامش » ضاعت - كما يقال - في ليل الزمان ، فإن البروج من اختراع أقل قدماً منها .

---

(٢٩) ديوسكور dioscures توأمان متصلان دائماً ويرمزان إلى الصداقة وهما كاستور Castor وبولّوكس Pol-lux ابنا جوبيتر وهيلين أختهما «المعرب» .

(٣٠) إله الآلهة : زِفْس عند الاغريق وجوبيتر عند الرومان . «المعرب» .

وليس المقصود من سرْد رواية بسيطة واحدة ـ كما رأينا ـ لأن هذه الملحمة لاتستهـوي الـرواة البـابليين ولامن يصغون إليها فحسب بل كان يستهويهم ضربات سيف هائلة والقيام بسفرٍ طويل ، بل نحن أمام قصة شرقية ليست كقصص ألف ليلة وليلة بل هي من معدن آخر ، إنها قصة اسطورية فلسفية وكلما أوغلنا في تحليلها كلما حاسبنا أنفسنا وقلنا من هذه الناحية يجب أن ننطلق لابل من تلك يجب أن نبحث .

ما إن سقط الثور السماوي صريعاً حتى ارتقت الإلهة « عشتار » أسوار المـدينة . ومن هناك وأمام الشعب المتجمع في الساحة لعنت « جلجامش » جهاراً لأنه ـ في نظرها ـ هو المجرم الحقيقي في قتل الثور الذي خلقه إله السماء خصيصاً للانتقام لها . وكانت هذه اللعنة بداية مصائب البطل وعلامة انحطاطه .

موت « أنكيدو »

وفي اليوم التالي لذلك المشهد المأساوي المفجع ، رأى « أنكيدو » حلماً . فأسرع يقصه إلى صديقه ـ لأنه كان في حاجة ماسّةٍ إلى من يعبّره له ـ . لقد رأى في نومـه أنـه حضر مجلس الآلهـة وكانوا أربعة : « آنو » و «بلْ » و « إيا » و « شمَش » . وسمع بكل وضوح « آنو » يقول « لبل » : بما أنَ « جلجامش » و « أنكيدو » قتلا الثور الإلهي وقطعا رأس مارد الارز يجب أن يموتا موتاً » . وأجابَ « بلْ » : « يجب أن يموت أنكيدو حتماً » وعندئذ تدخل « شَمَش » في النقاش وسأل « بل » : « أليس بأمرك قتلا الثور والمارد » . ولكن « بِلْ » لم يرد على هذا السؤال بل أعلن حكمه بلهجة قاطعة : « سيموت انكيدو حتماً » .

وتنقصنا نهاية الحلم ـ وهذا مما يؤسف له ـ ولكن مابقي يكفي لمعرفة كم كان الآلهة منقسمين على أنفسهم وكم كانت شوراهم صاخبة . ومن هنا نفسّر أن الأشياء التي تحدث على الأرض ليست كلها لخير العالم . فالبشر يذهبون

ضحايا معيّنة أو على الأقل يخضعون ـ إن أرادوا أو أبوا ـ لاختلافات سماوية . وبالرغم عن جميع قواعد التنبؤ التي تكلمنا عنها من قبل والتي نتائجها في جميع الحالات مخيبة للآمال لأن مسلك الآلهة يظل أو يبدو مغلقاً لايستطيع أحد أن يتطرق إليه بمفهوم . وعندما تتوالى الخيبات ويكثر الغش لابد من الخضوع والاستسلام . وإن حاولنا أن نجد مخرجاً لما تريده السماء أو أن نعلل أوامرها لابد لنا من أن نعترف بأنه توجد قوة وارادة أعظم من قوة المخلوقين وإرادتهم . وهذه القوة لاتتزعزع عن تحقيق ماتريده ، وهي « القضاء » .

لو قال الإلـه « بلْ » يجب أن يمـوت « أنكيدو » لا « جلجامش » فما كان معنى هذا ؟ كان معناه أن « جلجامش » لن يموت أبداً أو أنه لايموت في نفس الـوقت الذي يلفظ « أنكيدو » فيه روحه . هذا ماكان يدور في خَلَد « أنكيدو » عندما قص حلمه . وكان على « جلجامش » أن يفهم بأن موته قد أُجّل .

وبعد اثني عشر يوماً ومن جرّاء مرضٍ غامضٍ ـ ربما كان من نوع مرضه في الصحراء ـ أسلم « أنكيدو » روحه ، كما قررت الآلهة .

شعر عندئذ « جلجامش » بحزنٍ عميقٍ جداً ، حزنٍ كاد يمزقه . وفي الأسطورة نشيد بكامله مملوء بالنّواح والأنين أو بالأحرى بالعويل . ليس لأنه أصيب بأحب مخلوق إليه وبأصدق رفيقٍ له وبأشجع أخٍ في السلاح ، بل لأنه أصيب وهو في ذروة عظمته وأوج قوته . فماذا يفعل ؟ وهل يستطيع أن يفعل شيئاً وقد حُرم من سندٍ كهذا . لم ير « جلجامش » أحداً يموت من قبل ، فعلم ان هذا المصاب الجلل هو من نوع الكشْف . لقد تيقن أنه سيرقد يوماً ما بدوره ولاينهض من رقدته قط . وهذا اليوم سيأتي إن عاجلاً أو آجلاً . ولقد ملأته هذه الفكرة رعباً ويريد بكل ثمنٍ أن يتفلّتَ من هذا الحكم ، إن ثلثيه إله فعليه أن يطلب ذلك الثلث الذي ينقصه ليصبح من الخالدين ولو جاب العالم حتى طرفه .

جلجامش يفتش عن نبتة الحياة

سمع « جلجامش » بأن جده « أوم نابيشتي » لم يمت وأنه مُنح الخلود بعد الكارثة التي سموها الطوفان وذلك لاستقامته وتقواه . إذن سيقصد هذا الجد الشهير والسعيد ويطلب منه « سر الحياة الأبدية » . فنراه يخرج من مدينته « أوروك » وحده في هذه المرة ويأخذ طريقه مجداً لايلوي على شيء .

مشى في السهل ، وفي نهاية المطاف وبعد أن تعرّض لشتى الأخطار التي زرعت في طريقه ، وصل إلى أسفل جبل - ليس بجبل الأرز - يسمى « ماشو » .

ظن كثيرون بأن « ماشو » هو جبل « أرمينية » الذي يسميه الجغرافيون القدامى « ماسيوس » والذي عرف فيها بعد ، في عصور أقل قدماً ، باسم « ماسيس » ، فإذا صح هذا الفرْض يجب أن نَقْبل بأن « جلجامش » سلك طريق الشمال . ولكن لابد من التردد أمام هذا الفرض ، ولاسيما إذا ماعرفنا كم هي واسعة المساحة الاسطورة وكم هي غنية في إقامة الأشراك المختلفة ، وكم هي سريعة العطب تلك الفروض والتخمينات التي لاتستند إلاّ على جناسات بسيطة (ماشو ماسيس ماسيوس) ولاسيما إذا كان الحديث كالذي نحن بصدده عبارة عن ألفاظ ذات مقطع واحد . وهنا نستطيع أن نقدم اقتراحاً مبنياً على اللغة البابلية . فكلمة «ماشو» معناها «التوأمان» وبما أنه يوجد في الشرق جبلان متوازيان وبالأحرى توأمان هما : سلسلة جبال لبنان الغربية وسلسلة جبال لبنان الشرقية ، نستنتج أن «جلجامش» أخذ باتجاه الغرب ليصل إلى مايبدد مخاوفه .

والمؤكد ، إن بطلنا وصل إلى أسفل جبل فيه زوجان من البشر غريبان لهما جسمان طويلان ويسميّان « البشر العقارب » ومهمتهما حراسة مدخل الطريق التي تسلكه الشمس كل مساء عندما تختفي وراء الأفق .

من الواجب أن لايضيع عن تصورنا بأن البابليين والآشوريين

والسـومريين والأكاديين كان لهم مفهوم عن ذلك العالَم ـ عالم ماوراء الأفق ـ يختلف تماماً عن مفهومنا ولاعلاقة البتة بين الاثنين . ففي عصر « جلجامش » كانوا يرون بأن العالم عبارة عن سهلٍ رحيبٍ جداً يمر فيه نهران عظيمان ويحده من جميع جهاته جبال شامخة هي : القوقاز وطوروس وسيناء وغيرها وعلى قممها تستند قبة السماء الصلبة أو كما نقول : السموات ـ وكل مساء كانت الشمس تختفي من باب مفتوح مخصص لها في الجبل الغربي وتمشي طيلة الليل في باطن الأرض لتعود في اليوم التالي وتظهر من باب آخر معاكس هو باب الشرق .

إذن ، « جلجامش » هو الآن في أسفل جبل « ماشو » وجهاً لوجه مع « العقارب البشرِ » الذين يحرسون باب الغرب . فقصّ عليهم مصائبه ونحوسه ورجـاهم متوسلاً أن يهدوه الطريق التي يجب أن يسلكها ليصل إلى هدفه . وحاول حراس « ماشو » أن يثنوه قائلين : « لايوجد طريق وحتى لو أفضيْتَ إلى شاطىء البحـر فكيف تعـبره؟ لم يستـطع أحد من قبل أن يجتازه إلاّ شَمَش (الشمس) . » ولكن لم يكن « جلجـامش » بالـرجـل ـ كما نعرف ـ الذي يصغي لنصـائـح الحذر . ولذا تابع سيره مواجهاً كل خطرٍ في شِعاب الجبل ومنعـطفـاته ، وبعد أربع وعشرين ساعة ـ أو بالأصح أربع وعشرين ساعة مضـاعفـة ـ أصبح في الجانب الآخر على شاطىء محيط يلفُّ العالم وفي بلاد العجائب حيث الأشجار من لازَوَرْدٍ وثمارها من عقيق ، إنه في حديقة فيحاء .

كانت هذه الحديقة لامرأة أو بالأحرى لإلهةٍ ولكن من مرتبةٍ ثانوية تحمل اسماً مزدوجاً «سيدوري ـ سابيتو»[٣١] Sidori - Sabitou . ولقد فسّر هذا الاسم من قبـل بكلمـة عربية مشـابهة « صبية » وبما أن الاسم العربي هو بالحقيقة « تسابيتو » وليس سابيتو فيكون هذا التقريب لاقيمة له . ثم قرّبوا بعد ذلك « سابيتو » من اسم بلاد « سبأ » التي عرفت جيداً بملكتها المعاصرة لسليمان . فتكون « سابيتو » بمعنى « السبئية » . فمن هنا ـ إن أخذنا بهذا القول البعيد

(٣١) يبـدو ان المؤلف لايعرف العربية. فلايوجد في لغتنا «تسابيتو» ولكن «صبية» وهي قريبة جداً مما فسّرت به الكلمة . «المعرب».

عن الصحة ـ نرى أن « جلجامش » سلك طريق بلاد العرب الجنوبية مفتشاً عما يحقق أمله . ولكننا نعرف الآن مامعنى هذه الكلمة على الوجه الصحيح ، وذلك من ترجمة حِثّية يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر ق.م ومعناها « التي تسكب الخمر للشاربين » . أي الساقية إذا كان لهذا الاسم مؤنث[٣٢] .

ورأت « سيدوري سابيتو » جلجامش يتقدم نحوها بمظهر المتوعّد فأخذها الفزع ودخلت البيت وأوصدت الباب بالمزاليج الصلبة . ولكن عندما سمعت صوت البطل وكان عذباً ناعماً رضيت أن تفتح الباب وتصغي لقصته . ولما انتهى من سرْد روايته شعر بمفاجأة مؤلمةٍ وشديدة الوقع . قالت له الجنّية : « إن الحياة التي تفتش عنها لن تجدها قط ، فالآلهة خلقوا البشر ليموتوا لا ليخلدوا ، أما الحياة فقد أمسكوها بين أيديهم ، فعليك إن أردت أن تستفيد مما منحوك إياه أن تتنعم في نهارك وليلك » .

ومع ذلك لم يرضخ « جلجامش » بل ألحّ طويلاً وجادل ، ولما تعبت « سابيتو » من نقاشه وعناده أرشدته إلى انه يوجد على مسافة قصيرة من حديقتها غابة فيها بحّار يجيد قطع الأشجار كما يجيد بناء السفن ، فربما اقتنع بمساعدة المسافر في مشروعه بالرغم من إنه عنيد وجريء .

اتجه « جلجامش » عند ذاك نحو الغابة . فالتقى بنوتيٍّ شرس الطبع عديم التهذيب . ولكن ماعتم ملك « أوروك » ان أقنعة ولكن كيف ؟ ـ لاندري ـ فقطعاً مئة وعشرين شجرة وبنيا مركباً لينتقلاً معاً ـ « جلجامش » ورفيقه الجديد ـ إلى « فم الأنهار » . هذا الاسم الذي أعطوه لذلك الفردوس الذي يسكنه الجد الخالد من عهد الطوفان .

لقد قارنوا لقاء « جلجامش » و « سابيتو » بلقاء « أوليس » و « كاليبسو »[٣٣] Calypso التي تروي « الأوديسا » قصتها في نشيدها الخامس .

---

(٣٢) لهذا الاسم مؤنث، والساقية قريبة من سابيتو ، وهذا هو الوجه الصائب . «المعرب».

(٣٣) جنّية ومليكة جزيرة «أوجيجيا» في بحر «إيونيين» استقبلت اوليس الغريق واحتفظت به سبع سنوات . «المعرب».

ونتساءل عند هذا : هل كانت الملحمة البابلية معروفة لدى العالم الاغريقي ؟ أو هل توصلت بعض فصولها ـ في وقت مبكّر ـ إلى « إيونيا » من قبل الحثيين ؟ نحن نعلم أن الحثيين كانوا يعرفون القصة بكاملها . وبما إن الإيونيين جيران الحثيين لصقاً فربما أخذوها عنهم .

الحق يقال : يوجد العديد من الصفات المتشابهة أو المشتركة بين القصتين . فكاليبسو ساعدت « أوليس » بنفسها في بناء مركب ـ أوعلى الأقل في بناء طوْفٍ ـ وقدمت له الأدوات الضرورية . إذ أرشدته إلى الغابة الواقعة في رأس جزيرتها حيث قطع العشرين شجرة اللازمة لبناء السفينة التي ستُقِلّه إلى بلاد « فياشْيان »[٣٤] . ومع ذلك فإن القصّتين لا تُبرزان الا مفارقات ضئيلة . فإذا كانت « سابيتو » لاتشجع جلجامش ليقينها أنه لن يصل إلا إلى الاخفاق فان « كاليبسو » تهبُ لضيفها الخلود شريطة أن يبقى عندها ـ كما فعلت « عشتار » أو أرادت أن تفعل مع « جلجامش » . قالت « كاليبسو » : « إنك لاتعلم ماذا سيحيق من ندمٍ وأسف قبل أن تصل إلى موطنك ومسقط رأسك . يجب أن تبقى إلى جانبي فتحرس هذا المسكن وبعد ذاك تصبح إلهاً . » ولكن « أوليس » خاف من سوء العاقبة فرفض بكل عنادٍ « الطعام الشهيّ »[٣٥] الذي قدم له كما رفض « جلجامش » جميع هدايا « عشتار » . وماكان « أوليس » إلا جندياً يودّ أن يعود إلى بيته بعد نهاية الحرب ، بينما كان « جلجامش » رجلاً يخاف الموت ويريد أن يتملص منه . فإذا كانت الأحداث في كلتا القصتين تتشابه في بعض التفاصيل ، وإذا كان التشابه مدهشاً ـ كما يبدو ـ فإنها في قرارة أعماقها تتباعد بشكل قطعيّ .

وبعد أن بذل « جلجامش » جهداً جهيداً تحفه الأخطار ـ الفصل قليل التشويش وكامل ـ وصل فجأة إلى حضرة جده الذي يعيش مع زوجته منذ آخر عهد الطوفان . لقد استقبل « أوم نابيتشي » سبطه برحابة صدر ولكنه عندما

---

(٣٤) شعب خيالي كان يسكن جزيرة «سْكيرْيا» في بحر «إيونيين» . «المعرب» .

(٣٥) طعام يجعل من آكله خالداً . «المعرب» .

اطلع على الغاية التي يسعى إليها اعلمه بدون مواربة أنه يجب أن يُقلع عن عزمه ـ إذ لاأمل يرجى ـ ولكي ينهي نصيحته في الاقناع ، أمره أن يجلس ولكن ليأخذ حذره من أن يغفو . ولكنه ماإن جلس حتى استسلم لنوم عميق . ولما أستيقظ وعاد إلى نفسه سمع جده يقول بنبرة متهكمة ومؤثرة : « أرأيت أنك لست إلاّ إنساناً . »[٣٦] .

حاول الجد تعزية المسكين ولكن عبثاً . وعندئذ أراد أن يقدم له ـ على الأقل ـ تعويضاً عما عاناه . فأخبره أنه يوجد نَبْتَةٌ « تُعيد الشيخ إلى صباه » ولكنها لاتوجد إلا في أعماق البحر ؛ وعلى « جلجامش » عليه وحده أن يقطع غصناً من هذه النبتة إذا لم يضعف فؤاده . وما إن سمع هذه الكلمات حتى أسرع فربط إلى رجليه حجرين ثقيلين وغاص في الأعماق ولما رأى النبتة العجيبة انتزع منها غصناً ثم فكَّ الحجرين وصعد إلى سطح الماء .

وفكرة وجود نبتةٍ تجدد الشباب وتمدد الحياة إلى الأبد منتشرة بين الناس . وهذا أمر طبيعي . فطالما توجد نباتات تشفي جميع الأمراض التي تصيب الأجسام ، لماذا لاتوجد نبتة نادرة ، من الصعب الوصول إليها ، تشفي من أكبر الأمراض : الموت .

الأفعى تسلب نبتة الحياة من « جلجامش »

وأخيراً ، هاهي النبتة الثمينة بين يدي « جلجامش » . لقد شقي كثيراً ولكنه أثيب الآن على مابذل من جهود . فما عليه إلا أن يعود أدراجه إلى « أوروك » . وعندما يدخل بيته سيأكل بعض أوراق الغصن السحري فتعود إليه ـ حسب أمنيته ـ قوة شبابه .

---

(٣٦) كما يقول التلمود: إن آدم قبل سقوطه كان يشبه الله تماماً حتى ان الملائكة خلطوا بينهما . وبعد أن تهيئوا ليغنوا نشيدهم في تمجيد الإنسان ، إذا الله يسقط على مخلوقه نوماً عميقاً ، عند ذاك عرف الملائكة خطأهم . «المؤلف» .

ولكن ماذا أكل ـ وياللأسف ـ وهو لم يغادر بعد بلاد « فم الأنهار » . لقد حدث ـ ويجب أن يحدث يوماً ماحدث ـ وهو في خاتمة مطافه أنه نزل إلى عين باردة ليروي غليله ـ كان اليوم حاراً جداً ـ وبينما هو يشرب ، شمّتْ حيةٌ رائحة النبتة ـ وكان « جلجامش » قد تركها جانباً ـ فانسابت بين الصخور واستولت على الغصن وعادت إلى مخبئها .

ومنذ ذلك العهد ، تستطيع الحية ـ بفضل سرقتها ـ أن تتجدد فهي تغيّر جلدها كل سنةٍ ، وبذلك تؤمن لنفسها شباباً جديداً . اما الانسان ـ والمقصود « جلجامش » فقد حُرِم من طِلّسْمه ولذا سيبقى خاضعاً للقحول والهرم وأخيراً الموت . وحية ميتولوجيا « بابل » لاتتكلم مثل حية التكوين[٣٧] ولكنها تتصرف بسرعةٍ فائقة تاركةً « جلجامش » وراءها يعض يديه حسرة. لقد أصبح خالي الوفاض ، وذهبت جهوده هباءً في هواء .

ومن المفيد أن نقرّب هذه القصة من قصة كتبها « فولتير ». والاختلاف بينهما قليل . قال : يروي بعض الآسيويين (الهنود) بأن الله لما خلق الانسان أعطاه وثيقة مكتوبة، على رقٍ جميل، فيها سر الخلود . فحملها على حماره وذهب يجوب العالم . وفي الطريق صادف الحمارُ الحيّةَ وسألها إن كان يوجد في الجوار نبع يستطيع أن يشرب منه . فقادته الحية بكل لطف إلى عين . وبينما كان الحمار يشرب والانسان بعيداً سرقت الحية الوثيقة وقرأت السر ـ والسر هو تبديل الجلد ـ وهذا ماجعلها خالدة . وحسب الفكرة الاسيوية احتفظ الانسان بجلده فكان عرضةً للموت[٣٨] .

القصتان ـ قصة البابليين وقصة فولتير ـ غير متشابهتين . ففي ملحمة « جلجامش » لايوجد حمار ولانبتة بل عقّار وفي قصة فولتير لايوجد نبات عجيب . لاشك ان فولتير سمع من بعض القصّاصين الشرقيين ـ وربما كان

---

(٣٧) الحية التي أغرت حواء بالأكل من الثمرة المحرمة . «المعرب».

(٣٨) أنظر في الحوار ذي العنوان «العباد» أو مدائح الله «١٧٦٩» وانظر أيضاً، المدخل في المحاولة على العادات . «المؤلف».

فارسياً ـ . وإذا ماصدقنا قوله فالقصة هندية . ولقد سألتُ الهنود عن هذه القصة فأنكروها البتة . ثم ماذا كنا نعرف عن الهند وعن أدب الهند عندما كتب فولتير ماكتب ؟ ربما كانت هذه القصة تعود إلى عهد قديم جداً ، جاءت بها الروايات المنقولة فاحْتُفِظ بها وعليها مسحة من مغامرات « جلجامش » .

وما كان ملك « أوروك » بالبطل الوحيد الذي حاول اكتساب الحياة الابدية . فهناك غيره وغيره ولاسيما « آدابا » و « إيتانا » . فقد كانا أشجع وأشد[٣٩] . لقد صعدا إلى السماء لينتزعا من الآلهة سرهم ـ سر الخلود . ولكنهما فشلا كما فشل « جلجامش » لأسباب أو لسببٍ واحد . هذا السبب كان كافياً . ونستطيع أن نوجزه بكلمة « حسد الآلهة » .

لم يكن ـ كما يبدو ـ في معتقد « ميزوبوتاميا » القديمة إلهة تجسّد الحسد مثل « نيميزيس »[٤٠] الاغريقية . مع أن الآلهة ـ كما عرفنا ـ لم يكونوا خالين من هذه العاطفة . فهم يقاومون بعضهم البعض ويعلو صراخهم في مجالسهم الاستشارية فيثورون ويتخذ كل منهم وجهة نظرٍ ولاسيما في علاقاتهم مع البشر، البشر الذين خلقوهم لخدمتهم لا لشيء آخر . والمكافأة الوحيدة لهم على تلك الخدمة « شيخوخة سعيدة » . فلاخلود . ألم تُعلن الجنيّة « سابيتو » دون مواربة عند بدء حوارها مع « جلجامش » : « الحياة التي تَنْشدها لن تجدها قط » هذه هي الحكمة والمغزى من الملحمة التي عُثِر عليها منذ مئة عام في أطلال قصر « نينوى » .

وبما أنه يوجد نِسخ عديدة لهذه الملحمة الشعرية ، فإن نسخة « أشور بانيبال » هي الأتم أو الأقل بَتْراً . أجل لقد عُثِر على ماهو أحدث منها وفيها من الفوارق والمعارضات مافيها مما يجعلنا نقول بأن الأسطورة تعرّضت عبر القرون إلى تحوير وتصحيف . وكنا نود أن نعثر على نسخة يعود تاريخها إلى عهد « نبوخذنَصّر » مثلاً أو إلى عهد السلوقيين . ولكن أنّى لنا هذا .

---

(٣٩) انظر ماتقدم . «المؤلف» .

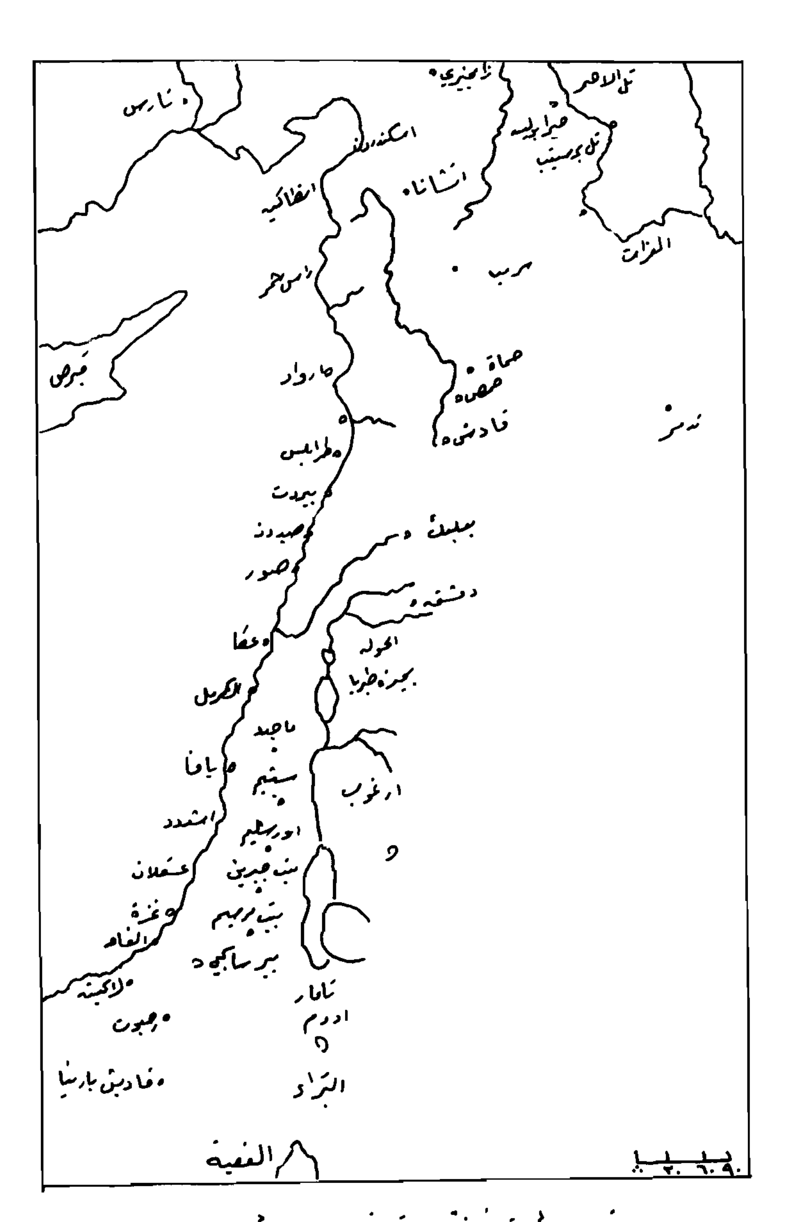
(٤٠) ربة الانتقام عند الاغريق . «المعرب» .

فلْنبقَ إذن في القرن السابع ق.م. وعلينا أن نسلّم بحق بأنه في ذلك الزمن العريق في القدم كان للبابليين وللآشوريين ـ ولدى كثير من الشعوب ـ نفس الخاطرة التي كانت لأسلافهم القدامى هي : التشاؤم والمادّية . لقد فكروا في هذه المسألة الخطيرة ولذا نستغرب عندما نقرأ هذا الرأي في مؤلَّف شاخ الآن اسمه « التاريخ القديم للشرق التقليدي » « لجاستون ماسبيرو » . يقول : في « كلدة » كانت مشاكل الحياة الحاضرة تشغل عقلية الإنسان تماماً فيحاول أن يقوّمها ويجعلها خاضعة لشروط الحياة الآتية ولكن ضيق وقته وتفكيره في اكتساب العيش يمنعانه من التفكير والتأمل » .

يريد « ماسبيرو » أن يقول بأنه كان للمصريين القدماء حياة أنعم وأهدأ ، هذه الحياة تخولهم أن يلهوا وأن يغوصوا أكثر في تأملاتهم . ولكن في الواقع ، لم تكن حياة الكلدان بالقاسية ، فأرضهم غنية جداً وكان لهم لهوهم وفراغهم فيستطيعون أن يفكروا أثناء قرون وقرون . لاشك ولاريب بأن « نينوى » و « بابل » سقطتا في وقت مبكر وهذا ماجعل مفكّري ذينك المركزين أن يعيدوا النظر في عقيدتهم .

إننا واثقون بأن شعوباً أخرى ستأخذ في يوم ما هذه المسألة ـ مسألة الخلود ـ وتوسعها بحثاً وتدقيقاً وربما أعطت جواباً يختلف تماماً عن جواب الجنية « سابيتو » « لجلجامش » ملك « أوروك » .

الأساطير الكنعانية



خريطة فينقية وفلسطين.

اكتشاف رأس شمرا

أسطورتا « دانيل » و « قيريت »

من بين الحفريات الأثرية الكثيرة التي جرت في سوريا خلال عشرين عاماً من ١٩٢٠ إلى ١٩٣٩ ، كانت حفريات « رأس شمرا » هي الأهم بفوائدها ونتائجها .

في سنة ١٩٢٨ ، جذب الانتباه اكتشاف مفاجيء ظهر في ذلك المكان من إقليم «اللاذقية» التي تواجه «قبرص» . فقام السيد كلود شيفير عام ١٩٢٩ بتنقيباته المنظمة فوقع على ميناء كبير يعود تاريخه إلى الألف الثانية ق.م. ـ مرفأ أوغاريت ـ. لقد وصلت هذه المدينة إلى ذروة توسعها في عهد الملك « نيقْماد » في منتصف القرن الرابع عشر ق.م. ولكنها سقطت ودمّرت سنة ١١٠٠ من قبل غزاة جاءوا من الغرب والشمال من جزائر بحر « إيجه » ومن الأناضول . ومنذ ذلك الوقت ظلت داثرة ولم تنهض .

لم تقدم أطلال « أوغاريت » العدد الكبير من الأدوات ومن الآثار المصورة فحسب بل قدمت بقايا مكتبة ـ كمكتبة نينوى وبابل ـ تشتمل على لوحات مشوية من الفخار وقد غطّى أحدَ وجهيها علاماتٌ سموها اصطلاحات بالكتابة المسمارية. ولكنها تختلف كثيراً عن الخط المسماري المعروف فإذا كانت كتابة « ميزوبوتاميا » تشتمل على مئات من العلامات تمثل كل واحدة منها كلمةً

أو مقطعاً فان نصوص «رأس شمرا» لاتحوي الا على ثلاثين علامة . ولذا وجدنا أنفسنا أننا أمام كتابة مؤلفة من حروف أي نحن أمام « ألفباء » حقيقية[41] .

لقـد كتبت هذه الوثائق بلغة واحدة ولاترجمة لها ، وهذا مما جعل فكَّ معمياتها أمراً صعباً للغاية . إذ من المعلوم ان لغة مجهولة تكتب بحروف مجهولة تظل مستحيلة المنال . إذن علينا أن نعرف ماهية هذه اللغة وهل كانت معروفة من قبل أم لا أو على الأقل أن نفهم ـ إن لم تكن لغة قائمة بنفسها ـ اللهجة التي ترد في لغات معروفة .

وبعـد سلسلة من التلمس والتقـطيع (تقـطيع الكلمـة ومقارنتها مع غيرها) توصل علماء الآثار إلى قراءة تلك اللوحات عام ١٩٣٠ . إذ كما قلنا آنفاً لم تكن تلك النقوش مزدوجة أو مثلثة اللغات[42] . ولم تكن قراءتها بشكل ناقص أو مقارب ولكنها كانت دقيقة وصائبة دقة الرياضيات وصوابها . فظهر بكل وضوح انهم يتعاملون مع لغة سامية لها وشائج القربى مع العبرية[43] ؛ ولذا نستطيع أن نسميها بالفينيقية الأولى .

ومن بين تلك اللوحات عثروا على بيانات خاصة؛ منها ثلاث رسائل موجهة إلى ملكة أوغاريت نفسها ومنها نصوص محاسبة تتعلق بتجارة الزيت والخمور والارجوان ومنها رسالة صغيرة تتضمن معالجة الحيوان . وكذلك على سلسلة من نصوص طويلة ، تشتمل كل واحدة على شعرٍ له صفة الميتولوجيا أو الأسطورة .

---

(٤١) إذا كان الاوغـاريتيون يكتبون لغتهم الخاصة بهذه الألفباء التي استخرجوا حروفها من البابلية . وكانوا يستعملون اللغة البابلية ولاسيما في تسجيل العقود. «المؤلف».

(٤٢) أب كتبت بلغتين أو ثلاث . «المعرب».

(٤٣) لاقربى بين هذه اللغة واللغة العبرية.

قصائد « رأس شمرا »[44]

إن القصائد التي عثر عليها ـ ليست سليمة فهي مقطوعات أصابها بعض التلف ـ هي من نوع عنيف جداً . وتحمل كلها طابع القدم السحيق . واذا كانت اللوحات الفخارية التي نقشت عليها (القصائد) ترجع إلى القرن الرابع عشر ق.م فاننا واثقون من أنها قبل أن تثبت على الشكل الذي وصلنا قد تناقلتها الأجيال سواء روايةً أو كتابة بطريقة ماليس ألفباؤها معروفاً .

ليس لأبيات القصائد قافية بل إنها تسير اثنين اثنين وذلك للتعبير عن فكرة واحدة ـ بعبارة أو بعبارة مختلفة ـ . ولانعلم كيف كانوا يلفظون طالما ان الحروف الصوتية غير موجودة[45] ولكننا نستطيع ان نعيد اللفظ إلى حالته الطبيعية وذلك بالمقارنة مع اللغات الأخرى التي هي من نفس الأسرة (أي السامية) . وروح القصيدة هو الوقع وليس القافية . ولانخطىء أبداً إذا ماطبقنا على هذه الأناشيد الفينيقية رأي « رينان » في تعريفه الأناشيد العبرية . قال : « جعبةُ من السهام الفولاذية وحبل مفتولٌ بشدةٍ وبوقٌ من نحاس أحمر يشق صوته الفضاء بعلامتين حادتين أو ثلاثة » . وكانت هذه القصائد تغنّى أو تُوَقَّع في الحفلات التي يقيمونها إحياءً لذكرى معارك الآلهة أو في الانتصارات أو الهزائم .

وفي العصر الروماني كانوا يقولون بأن « فينيقية » أنجبت منذ زمن حرب « طروادة » فلاسفة ومؤرخين . ولكن لانعلم في الوقت الحاضر مايقصدون بقولهم هذا، ومالغاية من عبارة « فلاسفة ومؤرخين » . إذ ليس المعنى واضحاً . وهل القصد الشرق أم الشرق القديم ؟ ولكن من المؤكد الثابت ان فينيقية قدمت ـ قبل حرب طروادة ـ شعراء عثر على مؤلفاتهم في صور وصيدا الموطنين الخالصين للكنعانيين ، وفي انقاض مدينة في سوريا العلياأسستها صور وصيدا وهجرها أهلها منذ ثلاثة آلاف سنة .

(٤٤) نشر أكثر قصائد رأس شمرا في مجلة «سوريا» ابتداءً من المجلد الثاني عشر سنة ١٩٣١ . وكان لها شروح لاتحصى . «المؤلف».

(٤٥) في لهجة أوغاريت لاوجود للحروف الصوتية ولاسيما الألف مثل لهجة فينيقية . «المعرب».

« إيل »[٤٦] أبو الآلهة

كنا نعرف قبل ١٩٣٠ أسماء بعض آلهة فينيقية ولاسيما «بعل» وما اشتق منه من أسماء مثل بعل زبوت[٤٧] أوبعل فيغور ، ولكننا نجهل تاريخ هذه الآلهة أو أساطيرهم أو شخصياتهم ، أما اليوم ومع نهار جديد فقد ظهر لنا أشياء وأشياء ، بالرغم من ان النور الذي يضيء لنا السبيل ، لم يزل في أكثر الأحيان باهتاً .

على رأس الألوهية يقوم الإله «إيل» ومعنى اسمه إله لاغير أما المعنى الحقيقي أو الاشتقاق الصوتي هو ولاشك الأول[٤٨] القوي . وبالفعل هو الإله الأكبر وأبو بقية الآلهة وأبو البشر وينعتونه بخالق العالم . مع أن النصوص التي وصلتنا لاتقول هذا حتى ولاتلميحاً . ان هي إلّا صفات موجزة جرت على ألسنة القدماء . ولانستطيع ان نصعد بالقول إلى أكثر من هذا حتى ولا إلى الطوفان .

إن الوثائق ـ التي نحن بصددها ـ تُبرز لنا عالماً قد رُتِّب ترتيباً رديئاً . إذ نرى ان هؤلاء الآلهة والإلهات في صراع دائم ، فهم يتشاجرون دائماً ، وكثيراً ماينتهي صراعهم بمذابح أو باغتيالات .

أما الإله « ايل » فبالرغم عن مركزه السامي لايقوم بأي دورٍ نشيط ، فهو دائماً بمعزل عن الأحداث ولايتدخل إلا اذا أجبر أو اضطر . فهو بالحقيقة إله شيخ هرم ، تنقصه القوّة المسيطرة ، وهو يشبه الإله المصري « راع » . لايحب الحرب ولاتستهويه المعارك. فليس هو الذي صرع «تَنّينْ»[*] و«ليفاثان»[٤٩]

---

(٤٦) قرب إيل من إله ، ثم أنظر إلى جبرائيل واسماعيل وعزرائيل ودانئيل أو دانيال وغيرها من الأسماء المنتهية بإيل . «المعرب» .

(٤٧) اسم شيطان ويعتبر في العهد الجديد رئيس الأرواح الخبيثة أي ابليس . «المعرب» .

(٤٨) قرب كلمة «إيل» من أول ـ «المعرب» .

(*) التنين كاسمه بالعربية ، مارد جبار طاغية . «المعرب» .

(٤٩) ليفياثان مارد ورد ذكره في التوراة في سِفْر أيوب . هائل الجثة خبيث مدمّر . ـ «المعرب» .

أو غيرهما من القوى الشريرة ، إنه يحب الهدوء قبل كل شيء ولايبالي بآلام من خلقهم ولابأفراحهم . لاينشد الا الراحة هو .

وبما ان اسم « ايل » يشترك بكلمة « شور »[٥٠] التي معناها « ثوْرٌ » يجب أن نعـرف بأن لهذا الإلـه السـامي طبيعتين ـ أو يوجد روايتان كانتا من قبل مختلفتين ولكنهما توحدتا مع الزمن ـ الأولى : إله أبوي مجهد قليلاً يحكم العالم الـذي أبـدعه على كيفه وإرادته ، والثانية إله مملوء نشاطاً وحيوية يسهر على إخصاب القطعان وبنفس الوقت على اخصاب الجنس البشري .

ولانعرف بصورة أكيدة أين مقرّه . فمن الواضح أنه كان لايسكن السماء بل الأرض وبعيداً جداً عن الأقـطار التي يقطنها البشر ، فهو في بلاد حيث الأنهار تصب في البحر . ولذا يمثلونه أحياناً يتنزه على طول شاطىء البحر مثل «يهـوه» الذي تمثله التوراة يتنزه في جنة «عدن» «متنشقاً نسيم المساء» كما يقول سِفْر التكوين[٥١] . ولكن إله اسرائيل وحيد بينما للإله « إيل » زوجة تحمل لقب « أشيراتْ يَمْ »[٥٢] ومعناها « حامية البحر » أي اليم . ولهذين الزوجين أبناء لايقلون عن سبعين .

و « إيل » هو العادل والحكيم من بين جميع الآلهة الكنعانية . يحاول أن يجعل العدالة تسيطر بين الآلهة . ويظهر في بعض الأحيان كريماً وهاباً يمنح طاقاته لبعض البشر في العالم أو لبعض الكائنات التي اختارها أو نسلت منه ـ الملوك لاغـيرـ واثنـان من الأبطال أو الانصاف آلهة شملها هذا العطف : الأول يدعى « دَانِلْ » والثاني « قيريتْ » .

---

(٥٠) كلمة «شور» ومعناها في الفينيقية أو الاوغاريتية «ثور» . قرب هذه الكلمة من أشور . «المعرب» .

(٥١) العبارة في التوراة : وسمعا (آدم وحواء) صوت الرب ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار ـ «المعرب» .

(٥٢) يم في العربية والفينيقية واحد ومعناها البحر ـ «المعرب» .

أسطورة الملك « دانِلْ »

كان الملك « دانِلْ » يحكم شعباً من المزارعين . فإذا مانبت الزرع ونضج فالفضل له ولمن يحيط به ، ولاسيما لابنته « باغات » التي تعرف طرق النجوم . ففي وقت معلوم وقبل أن يقوم «دانل» بأي عمل كان يجلس أمام باب مدينته الكبير فيسوي قضية الأرملة ويدافع عن حق اليتيم . ولاريب أنه كان يفكر كما كان يفكر فلاح « هيزيود »[٥٣] أي انّ من مارس العدالة وطبقها تزدهر ممتلكاته وتتوفر محاصيله وذلك مكافأة له على حسن تصرّفه لأن الآلهة رضيت عنه . وكان « دانل » يذهب بين الحقول ويتدخل لصالح المظلومين ويردع الظلّام . وإذا كان الفينيقيون منذ خمسة وثلاثين قرناً يعلمون بأن الخضوع للآلهة لايقوم إلا بالعدالة فهذا دليل على انهم كانوا يفهمون أربابهم مفهوماً عالياً .

واسم « دانل »[٥٤] معناه « عدالة الله » وهو يشبه ـ بفرق بسيط ـ لدانِيْلْ التوراة (دانيال) . والملك « دانِلْ » ليس « دانِيْلْ » النبي الذي عاش في عهد الملك « نبوخذ نصّر » . ولكنه « دانِيلْ » الذي تكلم عنه حزقيال (الاصحاح ٢٨ العبارة ٣)[٥٥] لّما وجه كلامه لملك صور معاصره ، لأنه تشبّه بالله تكبّراً فصرخ الرجل الموحى إليه (أي حزقيال) : « هل أنت أكثر حكمة من « دانيلْ »[٥٦] . وكنا لانعرف عن هذا «الدانل» الحكيم شيئاً ولانفقه كلمة حزقيال ولاندري ما معناها حتى قرأنا الاسطورة الفينيقية ، وعندئذ عرفنا مقصود «حزقيال» . اذن «دانل» ملك كنعاني قديم حكيم اشتهر بعدالته واستقامته حتى ذهب اسمه مضرب الأمثال بين الكنعانيين وغير الكنعانيين .

كانت المنطقة التي يحكمها هذا الملك العادل الحكيم تدعى « رب » Rp

---

(٥٣) هيزيود شاعر يوناني من القرن التاسع أو الثامن ق.م اشتهر بقصائده الدينية . «المعرب» .

(٥٤) اسم «دانِل» مؤلف من دان وإيل . ودان يدين دينونة حاسب اطاع ومنها الديّان القاضي . وإيل إله . «المعرب» .

(٥٥) عبارة التوراة هكذا : «هاانت احكم من «دانِيآل» ، سِرٌ مالايخفى عليك» . «المعرب» .

(٥٦) أي «دانيآل» المذكور آنفاً والمقصود به الملك «دانِل» . «المعرب» .

تارة وتارة « هـ ر ن م » Hrnm [٥٧] وما « ر ب » إلا بلاد ر ب م أو رِفائيم أحد شعوب العمالقة الذين كانوا يسكنون قديماً أرض فلسطين ونحن لانحتفظ لهم إلّا ذكرى مبهمة وكانوا في زمن استيلاء العبرانيين على أرض الميعاد . أما « هـ ر ن م » فهي مدينة فلسطينية ورد ذكرها مع مدن أخرى ـ من نفس الاشتقاق ـ في ورقة بردي مصرية يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر ق . م . ومن هنا نستدل على أن اسطورة « دانِئْل » تشكلت في الأقطار الجنوبية (فلسطين) ثم انتشرت . وربما كان سكان أوغاريت يمثلون جاليةً كنعانية ـ منذ أوائل الألف الثانية ـ على شاطىء سوريا الشمالية .

الملك « قيريتْ » في شبابه

وصلتنا القصيدة التي تحمل اسم «قيريتْ» على ثلاث لوحات وعدد أبياتها ألف ، نصفها مفقود . وهذا تناسب عادي ولكن الثغرات تعرقل بالطبع عمل المترجم المتتبع .

ولد « قيريت » من « إيل » و « أشيرات » ولكنه ليس بإله أو لم يكن كله إلهاً ـ فهو مثل « جلجامش » في الملحمة البابلية ـ ويجب على المرأة التي سيتزوجها أن تكون من البشر معرضةً للموت . ويجب أن تكون ابنة ملك بلاد «بابيل» ، و « بابيل » هذه كانت تدعى « أودوم» فهي بلاد الإدوميين[٥٨] .

إذن كان «قيريت » يحكم بلاداً[٥٩] قريبة ـ دون شك ـ من « أودوم» . لقد طال حكمه وفي ذات يوم أخذه الخوف من العقم ، إذ لاولد له ـ وهذه، كما نعلم ، مسألة فولكلورية عالمية ـ فعكف في غرفته ، في أخريات قصره ، يقضي لياليه بالبكاء . وفي ليلة غفا فرأى في نومه أباه الإله ووعده بأن يهبه ذرية كثيرة .

---

(٥٧) والمظنون ان كلمة «هـ ر ن م» تمثل «هارنم» أو الهرمل في البقاع (لبنان) ـ راجع جبرائيل سعاده في أوغاريت . « المعرب » .

(٥٨) إيدوم هو التسمية التوراتية ولكن في الأشورية البابلية «اودوم»

(٥٩) هذه البلاد تسمى «خوبور» (اقرأ أوغاريت لجبرائيل سعادة) «المؤلف»

ودلّه في نفس الوقت على التصرفات الواجب اتخاذها بكل تفصيل كيما يصل إلى غايته المنشودة .

وعندما أفاق من نومه قدّم خضوعه لأبيه الإله «إيل» وإلى الإله «بعل» حاميه . ثم صعد إلى برجٍ ورفع يديه نحو السماء وضحّى بحَمَل وجدي وخبز من خير صنف وبطير وخمرٍ في كأس من الفضة وبعسلٍ في كوبٍ من ذهب . ولما نزل من البرج جمع الناس ـ ثلاث مئة عشرة آلاف رجل كما يقول الشاعر من غير البدو الذين كانوا كثيري العدد ـ . وعلى رأس هؤلاء الرجال زحف حتى حدود بلاد « أودوم » .

فانخدع الملك «بابل» كما يبدو بنيات جاره ـ ويجب أن ينخدع حقا ـ لأنه كان مسالماً طيب القلب . فأرسل مبعوثين للاستفسار ـ وتوالت الرسل ـ ولكي يثني «قيريت» عن هجومه قدّم له فضة وذهباً وخيلاً ومركبات وعبيداً. ولكن «قيريت» رفض الهدايا باحتقار وقال: عندي ذهب وفضة! إنما ينقصني ـ العبارة حرفية ـ ولايوجد في بيتي، شيء منه واحد، وأنت وحدك ولا أحد غيرك يستطيع أن يعطنيه، هذا الشيء الناقص الغير موجود هو حفيدتك «هورِيّا»[٦٠] اللطيفة مثل الربات والجميلة مثل عشتروت» .

ومن ذلك الوقت زال اسم «بابل» من الوجود. فرضخ ملك «أودوم»[٦١] للأمر الواقع، ورضي بتزويجه ـ وهنا النص مقطوع ـ وهنا يتدخل « بعل » وأمر « قيريت » أن يتقدم من « إيل » ويطلب منه البركة ، بركة الزواج .

وبعد أن قام بمختلف التصرفات ـ لاندري ماالمقصود منها ومن ذكرها في القصيدة ـ غادر بيته أو قصره وذهب إلى أبيه الإله «إيل» . وكان اللقاء سهلاً ومستعجلاً حتى ان الإله « إيل » مشى نصف الطريق كما طلب منه « بعل » واستقبل الملك بحرارة .

كان هذا الاستقبال غريباً وغير متبع . إذ كانت العادة: إذا أحبت الآلهة شخصية من مرتبة ثانوية ـ وكلهم هامشيون أمام «إيل» الإله الواحد ـ أن تلقى

(٦٠) أو «حوريّا» قربها من حوريّة . «المعرب».

(٦١) أصبح اسم «بابل» من الآن فصاعداً «أودوم» «المؤلف».

الإله «إيل» وتتقدم بطلب راجية متوسلة ، فإذا ماسمح باللقاء ترتمي الشخصية عند قدميه ساجدة ، فيقبل هذا خضوعها وهو جالس على عرشه . واذا كان أحد أبناء الإله حاضراً ـ ويجب أن يكون منهم اثنان على الأقل ـ يستقبل الآتي قائماً وممسكاً بيده كأساً كبيراً ـ ولايقولون مافيها ولا لأي شيء أعِدّتْ .

وهنا لم تراع القاعدة ، فكأن الملك مساوٍ للإله . وعندئذ بارك «إيل» الملك ثلاث مرات وقال له : « خذ زوجة (والأحسن دوْن شك : خذ الزوجة التي اخترتَها) وأدخلها بيتك ». ولم يذكر هنا اسم الزوجة ولكننا عرفناه من الفصل السابق ومن الفصل الذي يلي. فهي «هوريّا» حفيدة ملك «أودوم» .

وأخبر «إيل» بعد ذلك «قيريت» بأن زوجته ستلد له سبعة أبناء لابل ثمانية ومثلهم بنات . وسيسمى الولد البكر «ياسيب» وسترضعه الإلهتان «اشيرات» و « آنات » . ـ كان من المفروض ان نعرف اسماء الأبناء الباقين وأسماء البنات، ولكن قسم مفقود ماعدا الحرف الأول والأخير من اسم احدى البنات ـ .

ونسمع الإله يقول للملك بأن الأبناء وأبناء الأبناء سيحسبون « بين رفائيم الأرض». ويجب أن نفهم من هذا القول بأن ذرية «قيريت» تذكرنا نوعاً ما بأن شعب «رفائيم» الشجاع، جاءته الشجاعة من هنا .

وينتهي خطاب الاله بتصريح يتعلق بالبنات بأنهن سيولدن بعد الأبناء. وهذا التصريح عبارة عن كلمات ثلاث: « سأجعل من صغراهن البكر لهن » والمعنى « سأعطي للصغرى حق البكورية » والمقصود البنت التي تحمل الاسم أو اللقب «شيتمانات» أي الثامنة. واذا كانت «شيتمانات» هي الوحيدة من بين أخواتها ستلعب دوراً خاصاً بها فيه كل النشاط ، فلانستغرب مايمر معنا ـ بأنها قد اختارها الإله قبل ولادتها لتشغل مكاناً مرموقاً وممتازاً إلى جانب والدها . واسم « شيتمانات » يتفق تماماً مع هذا التصرف ؛ إذ عدد سبعة مقدس وعدد ثمانية قريب جداً من التمام إذا لم يكن التمام نفسه .

وبعد أن بارك الإله « إيل » « قيريت » للمرة الأخيرة انسحب مع بقية

الآلهة ـ أي مع موكبه ـ إلى « خيامهم أو مساكنهم »[٦٢] والكلمتان (خيام ومساكن) وردتا بالاسم والترتيب في سِفْر « صموئيل » الثاني (الاصحاح ٧ العبارة ٧)[٦٣] فيذكر أن «يهوه» إله اسرائيل كان يسكن في خيمة أو مسكن وذلك في زمن سابقٍ لسليمان الذي بني له بيتاً (الهيكل)، في زمنٍ كان «يهوه» وشعبه يعيشان متنقلين أي في حالة بدوية .

ولكن في قصائد «رأس شمرا» كان لاكثر الآلهة بيوت أو قصور . فكان للإله «إيل» بيت هو «بيت الله» . فهو لم يكن إلهاً بدوياً متنقلاً مثل إله الفينيقيين. واذا ما رأيناه ينسحب إلى خيمة فهو قد خرج منها ليبارك «قيريت» . فهو إذن قد ترك مكانه أو كان مسافراً[٦٤] . ولاشيء يمنعنا من أن نتقبل من أنه عاد إلى مسكنه على مراحل .

إن ولادة أبناء الملك وبناته قد بُلِّغَ عنها أو قد سُجِّلت في تعابير جد وجيزة ، ولاشيء في هذا المشهد يسترعي الانتباه إلا حادثٌ واحد ، هو إن الشاعر تحدث عن أبناء «قيريت» وعن بنات «هوريا» فكأن في ذلك المجتمع يعزون بصورة خاصة الأبناء للأب والبنات للأم .

ومنذ ولادة أولئك الأولاد ـ الذكور والإناث ـ وهبتهم أمهم أمام الإلهة «أشيرات» جدتهم للآلهة . فما هو هذا التكريس وهذه الهبة؟ ـ لانعرف ـ فاذا كان معنى فعل ن د ر[٦٥] NDR المستعمل هنا معروفاً منا جيداً فقد وضح في عبارة معناها غير واضح .

إننا نعرف أنه كان لدى العبرانيين رجال يسمونهم «المنذورين» (كلمة

---

(٦٢) المساكن مفردها مسكن ويقصد به بيت القرابين . «المعرب» .

(٦٣) العبارة هي : لأني لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت بني اسرائيل من مصر الى هذا اليوم، بل كنت أسير في خيمة أو في مسكن . «المعرب» .

(٦٤) قارب بين هذا القول وبين كلام صموئيل (الملوك الأول اصحاح ١٨ عبارة ٢٧) مندّداً بكهنة «بعل» : «أدعوا بصوتٍ عالٍ لأنه إله مستغرق أو في خلوة أو سفر أو لعله نائم فينتبه . «المؤلف» .

(٦٥) نَدَرَ أو نَذَرَ فعل عربي بحت . «اني نذرت للرحمن صوماً» . والنذر معروف ولعل الأوغاريتيين كانوا يلفظون الذال دالاً . «المعرب» .

مشتقة من جذر ن ذ ر NZR القريب من ن د ر N D R) وقد نذروا لله وأحياناً كانوا يُنذرون قبل مولدهم ، وكان يجب عليهم أن يطلقوا لحاهم وشعورهم وان يمتنعوا عن شرب الخمر . ومن أشهرهم « شمشون » و « صموئيل » . وفي التوراة اصحاح كامل للأوامر الطقوسية المتعلقة بالمنذورين وهو الاصحاح السادس من سِفْر العدد[٦٦] . ومع ذلك فنحن لانعرف ـ بصورة جلية ـ ماهي النذارة وكيف كانت ؟

ونعرف أيضاً أن النذر كان يشمل في اسرائيل النساء والرجال . اذن من المعلوم في أسطورة «قيريت» ان البنات كن منذورات مثل الأبناء ؛ وكذلك كل مايلدون بخلاف العهد القديم فالنذر فيه حالة شاذة .

وفي قرطاجة ـ مستعمرة صور ـ كان لكلمة نَذْر ونَذَرَ معنى يختلف عن معناها في اسرائيل ، وهو معنى واضح ولكنه مشؤوم أكثر مما هو واضح ، فالولد المنذور سيقدم ضحيةً للإلهة الطاغية «تانيت» . ويشترط أن يكون ذكراً في شهره السادس على الأقل . ولكن في «رأس شمرا» ليس للفعل نفس المعنى . ويكفي لكي نقتنع أننا نرى أولاد «قيريت» الذكر منهم والانثى أحياءً[٦٧] في الفصل الثاني من الملحمة حتى « ياسيب » بكر الذكور وحتى « شيتهانات » الصغرى من البنات التي ستصبح «بكر الاناث» .

إن تكريس أبناء «قيريت» للآلهة جرى ليكونوا جديرين بالمُلْك . ولن نقف أمام هذا التفسير . وان كانوا منذورين ليسوا بممسوحين[٦٨] . ثم لاشيء يدلّ على انهم نذروا ليمارسوا السلطة والحكم .

وهذا المشهد (مشهد التكريس) مبتور، ولا نملك الّا أوّله الذي هو عبارة عن اثنتي عشرة كلمة ثم نقع في ثغرة من خمسة عشر سطراً تقريباً . ثم نرى أنفسنا فجأة أمام حَدَثٍ جديد نستطيع أن نختصره بكل سهولة إذ النص

(٦٦) العدد الاصحاح ٦ من العبارة ١ الى ٢١ «المعرب» .

(٦٧) أي لم يقدم أحدهم أو احداهن قرباناً ـ «المعرب» .

(٦٨) المسح بالزيت دلالة على القدسية . «المعرب» .

الأصـلي نفسـه مختصر جدا ـ ولعله إيجـاز نموذجي ـ فلايقدم أية عقبةٍ لا في القواعد ولا في الرُّقُم[69] .

وبأمر الملك جهزت «هوريا» غداءً . فذبحت أثمن الكباش وأسمنها وفتحت خابية كبيرة من الخمر ثم دعت ثيران الملك السبعين وغزلانه ؛ وطلبت منهم أن يدخلوا قصر الملك قائلة : « قدمـوا قربـاناً على شرف أبيكم قيريت » .

من المفهوم أن أولئك الثيران والغزلان ـ سيدهم « قيريت » ـ الذين دعوا ليدخلوا القصر ويقوموا بالتنفيذ ليسوا بالواقع إلا بشراً وسمّوا ثيراناً وغزلاناً على طريقة المجاز . ونجد هذا المجاز في كثير من مستندات « رأس شمرا » كما نجده في العهد القديم (التوراة) .

إذن هؤلاء الثـيران لبسـوا إلاّ خدماً «لقيريت» . ولاشك بأنهم رؤساء ورؤسـاء يعـرفون سلطته عليهم . ولاسيما إذا صدرت الأوامر من فم زوجة الملك . وبما أن «قيريت» ابن الإله «إيل» الذي يسمى في كثير من المواضع في الملحمة «الاله الثور» فليس من المستغرب أن يوجد في بلاط ملك كهذا رجال يدعون بالثيران .

وقد جاء ـ في الملحمة ـ أنهم من بلاد « خابر » ، ونعرف ان أهم مدينة في مملكة «قيريت» كانت تدعى «بيت خابر» ولذا لايسعنا الا أن نتقبل بأن هذه المملكة كانت تسمى «خابر». و «بيت خابر» اسمٌ مبدوء ببيت كما نقول «بيت لحم»[70] .

أمـا عبـارة «ثـيران خابـر» فتدل على موالي «قيريت» أو على مساعديه وضبـاطـه . وهي تشبـه عبـارة «كبـاش موآب» التي تنـطبق في سِفْـر خروج (الاصحاح ١٥ عبارة ١٥) على أمراء «موآب» الذين كانوا كلهم منذورين مثل الخابريين الموكلين بحراثة الحقول وتربية الحيوانات .

---

(٦٩) الرقُم مفردها رقيم الشيء المكتوب على لوحة فخارية أو غيرها . «المعرب» .

(٧٠) بيت لحم قريبة من القدس ، وكثير من المدن والقرى تبدأ ببيت . «المعرب»

انحطاط الملك « قيريت »

الفصل الثاني من اسطورة «قيريت» مفصول عن الفصل الأول بثغرة كبيرة . وهو يروي عهد انحطاط الملك أو سقوطه .

اجتمع أولاد «قيريت» ـ وقد أصبحوا كباراً ـ حول أبيهم ليهنئوه بنجاته من الموت وليفرحوا ـ يبدو أن الملك كان في خطر الموت إثر مرض أو حادث .

وباسم الأسرة كلها تقدم ابن الملك ـ لاريب أنه الابن البكر ـ وعبر عما مكنون من ابتهاج لنجاته . وهكذا بدأت هذه الغبطة ولكن على مايظهر لم تكن كما يجب فقد شابها الأسى . هذا وان كان لم يذكر بشكل واضح ولكننا مضطرون لأن نقرأ بين السطور لا بل بين الحروف فنتأكد من ذلك لأننا نرى في اليوم التالي ـ إذا لم يكن في اليوم نفسه ـ أبناء « قيريت » في قلق واضطراب شديدين .

لقد امضى «قيريت» حياة كلها انتصار فلم يُغلَب ولم يُجْرح مثل الخالدين . أما الآن بعد أن أصيب فقد ظهر العكس بالرغم عن أصله الذي هو من جوهر الآلهة ـ وهذا مما يبدد جميع المخاوف ـ . وأعرب الابن البكر عن قلق الجميع بقوله موجهاً كلامه لأبيه : « إنك ستموت ككل إنسان » . .

هذا وإن كان قرار القضاء قد لفظ الآن ولايمكن مقاومة هذا القرار فان الأسرة ستعمل المستحيل لكي تبعد شبح الموت الذي يرود حول البيت . إنهم يريدون أن يؤخروا المصيبة وأن يربحوا وقتاً ، ولذلك صرح ابن الملك باسم الجميع بأنهم سيسهرون على البيت ويراقبون الشوارع ويقومون بحراسة مشدّدة شبيهة بحراسة كلب أمين .

إذن ، لو أخذنا بجميع الاشارات أو الرموز المبعثرة في قصيدتنا لكان من المحتمل جداً أن « قيريت » ابن الاله سيموت يوماً رغم منبته لأنه لم يعرف كيف يملأ المهمة التي أوكلها الإله اليه : وهي أن تسود العدالة على الأرض أو على الأقل في مملكته .

لاريب انه في بادىء أمره أظهر خضوعاً تاماً وإطاعة عمياء لإرادة أبيه الإله . ولكنه مع مرور السنين ـ وهي كثيرة ، ابتعد دون أن يشعر ـ أو أحب أن يتبجح ـ عن الطريق المستقيمة . لقد أخطأ بحق العدالة وهذا ذنب لايغتفر ولاسيما إن صدر عن ملك .

لذلك سيموت يوماً ـ رغم انه ابن إله ـ لأنه خان الثقة . سيعيش بعض الوقت ـ وربما طويلاً بعد جراحه أو مرضه ، ولكن وعيد الموت يُثقل عليه من الآن فصاعداً وحتى نهايته . فهو شبيه بآدم الذي لم يمت غبّ سقوطه إذ عاش قروناً بعد طرده من الجنة وحتى عُمِّر ٩٣٠ عاماً .

وكـذلـك بين أسطورة «قيريت» الشعرية والعهد القديم يوجد تقارب ومشابهات يجب أن نبينها .

فأولاً هذه الحالة التي تمر بالملك ولاسيما هذا الحكم يستدعي في الذهن ذكر أحد المزامير ويحمل رقم ٨٢ وفيه يتوجه الله بالحديث إلى الحكام . قال لهم :

حتى متى تقضون جورا
انصفوا المسكين والبائس
نجوّهم من يد الأشرار

وبما أن هؤلاء الحكام (القضاة) الأشرار لايسمعون ولايفقهون شيئاً فقد حكم الله عليهم ولفظ قراره :

إنكم (حتى الآن) آلهة)
ولكن (بما أنكم ارتكبتم الخطيئة ولم تتوبوا)
مثل الناس تموتون .

« مثل الناس تموتون » وهذه العبارة بالعبرية : « كي آدم تيموتون »[٧١] نفهمها كما فهمها الناس من قبل هكذا : « ستموتون مثل آدم » وربما دل هذا الاسم « آدم » على البشرية جمعاء كما يدل على الانسان الأول . ولذا يجب أن نترجمـه «مثـل النـاس» وليس «مثل آدم» . ومن جهة أخرى ، فان الترجمات

(٧١) كآدم تموتون . «المعرب».

القديمة للتوراة التي تحمل اسم « أُوسْ أَنْثروبوئي » (سبتانت)[٧٢] واسم « سيكوتْ هومينيسْ (فولكات)[٧٣] »

تقول كما تقول ملحمة «قيريت» ـ مثلما رأينا الابن يقول لأبيه ـ: « ستموت ككل إنسان بسيط » .

ولما سمع « قيريت » كلام ابنه ورآه في كآبة عميقة قال : « لاتبك هكذا ولاتتأوه » ولكن هذا لايعني أنه لايجب لأحد أن يبكي . وقام الابن بأمر والده وذهب ليحضر احدى أخواته وهي الأخت التي تدعى « شيتمانات » ـ الثامنة ـ لكي تندب مكانه . ولكن هذه قامت بأمر آخر ، فهي تحاول أن تنقذ أباها ولذا قدّمت قبل كل شيء قرباناً للإله وطلبت بتضرع وتوسل شفاء الوالد . (قارب بين هذا الاسم وبين ماجاء في الأسطورة) .

تأثر الإله « إيل » من هذا الحزن العميق فجمع الآلهة « إيليم »[٧٤] حوله وكلهم أبناؤه ـ وعددهم سبعون كما مرّ ـ وطلب منهم أن يعطفوا على مصير « قيريت » وان يهتموا به ويتدخلوا لانقاذه حتى ولو كان متهما فهو ابنه . ثم ألقى عليهم هذا السؤال البسيط مباشرة : « مَن منكم سيطرد الضرر الذي يشكو منه الأمير؟ » .

كنا نظن ـ بعد أن ألقى « إيل » سؤاله الواضح المستعجل ـ بأن الآلهة سيلبون طلب أبيهم ويسرعون بأجمعهم ويتنافسون النشاط . ولكن لم يحدث شيء من هذا . لم يجبْه واحد منهم حتى ولابكلمة . وكرر الإله سؤاله واعاده ست مرات متوالية والسكوت شامل ، فلا جواب وحتى للمرة السابعة[٧٥] .

---

(٧٢) أقدم ترجمة للعهد القديم إلى اليونانية وقام فيها ٧٢ قاضياً من مصر وبأمر من بتوليموس فيلادلفوس (بطليموس) وهي أشهر ترجمة (٣٨٣ أو ٣٨٢ ق . م) «المعرب» .

(٧٣) ترجمة التوراة إلى اللاتينية وفقاً لسيبتانت وصححها القديس جيروم ولكن رجال الاصلاح في القرن السادس عشر رفضوها لكثرة أخطائها . «المعرب» .

(٧٤) إيليم جمع إيل ، لاننسى ان علامة الجمع عند الفينيقيين «يم» وعندنا «ين» . «المعرب» .

(٧٥) هذه الطلبات السبع كثيرة الوقوع في الأدب البابلي . ولكن العادة أن يكون للطلب السابع الجواب الحسن والحاسم ـ «المعرب» .

الهـدوء مسيطر على الجميع ، إنهم يعرفون أو يشعرون بأنهم لايقدرون على شيء، وانهم عاجزون أمام الموت وأمام المرض المميت . لقد كانوا يعتبرون أن « قيريت » مُتّهم ومن العدالة أن يكفر عما اقترف . إذن وأمام هذه الخيبة سيقوم «إيل» بهذه المهمة، لأنه ـ بحكم طبيعته ـ أرحب صدراً وأشفق نفساً ، وسيغفر له لأنه ابنه .

وهنا نرى الإله الأب ينهض ويأمر الآلهة بالجلوس ويخبرهم بأنه هو الذي سينقـذ الأمـير . ولكن تدخله لم يكن مُجْدِياً ـ كما نعرف ـ. إذ عندما يواصل النص سرْده بعد انقطاع ـ في هذه المرة قصير ـ نرى ان « قيريت » لم يشف ، وحـالتـه تتـطلب المـزيد من الاعتنـاء . فمن الـذي يتقـدم للعـطاء؟ انها « شيتمانات » الابنة الصغرى ، الابنة الثامنة .

بكت من قبل وتأوهت ـ كما مر ـ وهاهي الآن تتهيأ للعمل. فهي تغدو وتروح وتدخل وتخرج وتضاعف حركاتها ـ تصرفات لاندري القصد منها ـ ولكن ها « قيريت » يتماثل وتواتيه الشهية ويأمر زوجته « هوريّا » أن تذبح حَمَلا يأكل منـه يومـاً بل يومين . وأخيراً بريء . وابنته الثامنة هي السبب. هذا عملٌ معـروف منـا جيداً . فقـد كان لدى الفينيقيين إله اسمه « أشمون » ومعناه « الثامن ». إذن « فأشمون » إله شافٍ . وسيأخذ الإغريق هذه الفكرة ذات يوم مع « اسكيلبيوس »[٧٦] الذي نسميه نحن اسكيلاب .

هذا وان كان «قيريت» قد بريء طبيعياً فإنه لم يزل مصاباً روحياً . إنه يفكر دائماً بالخطيئة التي ارتكبها وبما اقترف غيرها من ذنوب بحق الآلهة . وما ان انتهوا من تناول الطعام حتى طلب «قيريت» الأكل ، وفجأة دخل ابن الملك القصر مدفـوعـاً بحسٍ داخـلي، لا ليبكي ويتـأوه ولكن ليذكر أباه بواجباته وصرخ : «أنصفِ الأرملةَ، غَذِّ اليتيم ، عاقِبِ الظالم وأنقذِ المظلوم ؛ أو إنزلْ عن عرشك لأجلس أنا مكانك . . .

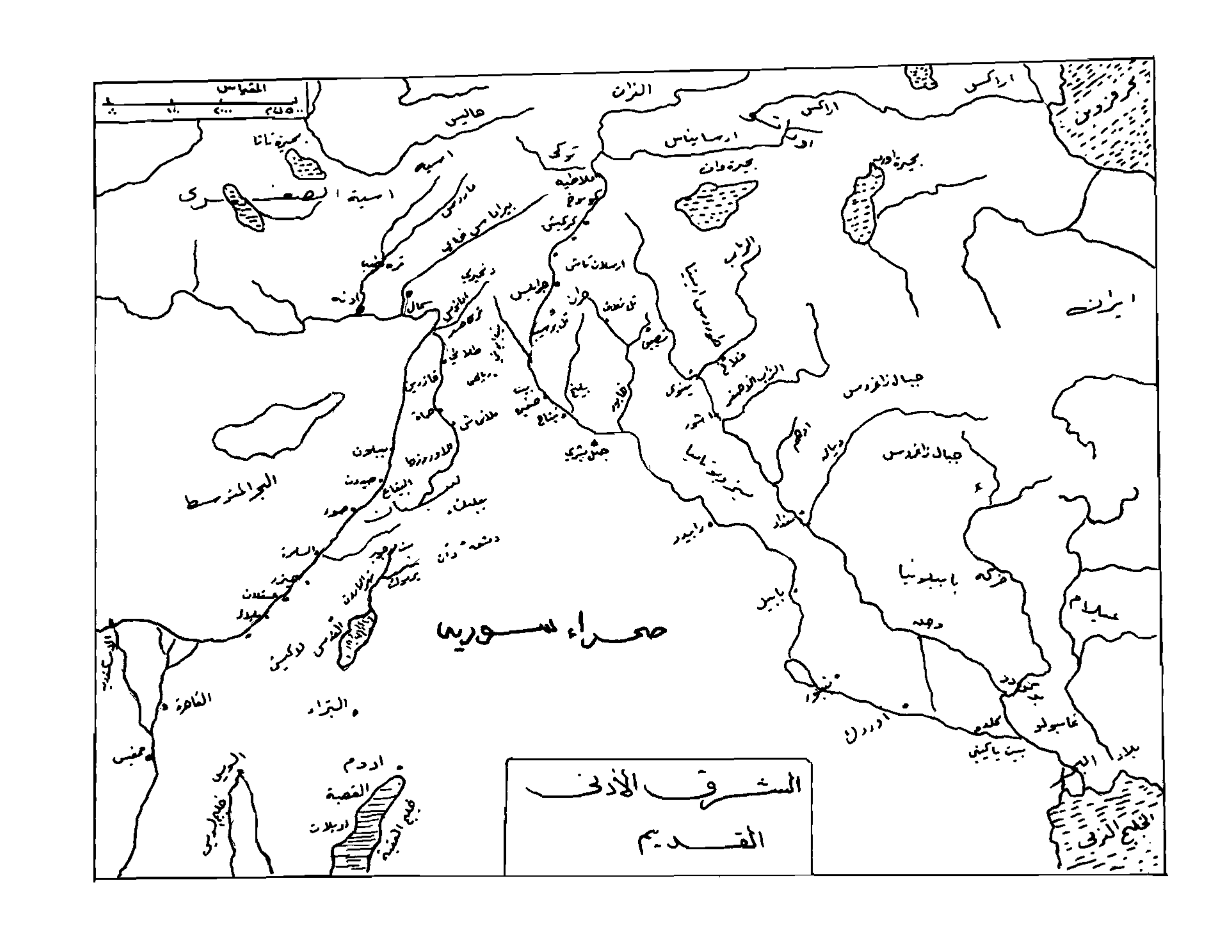
وعندئذ نهض «قيريت» ـ وكنا قد رأينا انه قد استردّ قواه ـ ليلعن ولده

(٧٦) إله الطب عند الاغريق وهو ابن «أبوللون». «المعرب».

ويهدده بانتقام الآلهة . ولكن ليس كل الآلهة بل اثنان فقط : « ليحطم حورون وعشتروت جمجمتك وليلقوك في المهواة مهشم الرأس » .

هل استجاب الآلهة لدعاء الملك ؟ أيعاقب الابن لانه ثار ضد ابيه ، وان كان سبب تمرده شرعياً ؟ لانستطيع أن نجيب لأننا لانعرف ماذا نقول ، فنهاية النص مفقود .

وعلى كل حال ، فمن المسلم به أننا أمام اسطورة من نوع ماترويه التوراة عن أنبيائها ، اننا مع قصةٍ فلسفية . وماسطورة « قيريت » الاّ تاريخ ملك شيخ ، ولعله أقدم رؤساء كنعان ولذلك احتفظوا بذكراه . تاريخ ملك طلب الـزواج من امـرأةٍ من بلدٍ مجاور له ، واختطفها عنوةً ليجعل منها زوجته وأم أولاده ؛ تاريخ ملك أيضاً تحمّل عواقب وخيمة وعوقب بالموت لأنه لم يستطع القيام بالدور الذي أوكل إليه .



الشرق الأدنى
القديم
صحراء سوريا
البحر المتوسط
اسية الصغرى
هاليس
الزاب
ارساناس
الراكس
كردستان
بحيرة وان
بحيرة اورميه
جبال زاغروس
ايران
عيلام
بابيلونيا
بابل
بغداد
اور
اوروك
لجش
اريدو
الخليج الفارسي
البتراء
القاهرة
ممفيس
دمشق
جبيل
صيدون
صور
حماة
قادش
كركميش
حران
ارسلان تاش
تل حلف
نينوى
آشور
نمرود
بلاد العرب
المقياس

« بعل » وإله البحر

إن لوحة « رأس شمرا » التي نعطيها العنوان المذكور أعلاه ، تعد أربع مئة سطر ، مقسمة إلى أربعة أعمدة اثنان على الوجه الأول واثنان على الوجه الآخر . ولكن لايوجد بين أيدينا أكثر من مئة وليست على التوالي . إذ لم يبق الا النصف الثاني من العمود الأول وجزء من العمود الثاني والفصل الأول من الرابع .

فإذا ما أخذنا هذه القصيدة بمجموعها ـ كما هي بين أيدينا ـ نراها تشتمل بصورة خاصة على معركة أو بالأحرى على سلسلة من المعارك بين « يَمْ » الذي معناه «البحر»[٧٧] وبين « بَعْل » سيّد الأرض . ويساعد « يَمْ » ـ ويسمّى أيضاً « إيلْ يَمْ »[٧٨] (إله البحر) أو « زابِلْ يَمْ » (أمير البحر) ـ الربة « أشْتارْ » ـ ونسميها مثل الاغريق « عشتروت » ـ ويتحالف دائماً مع الإله « نَهَرْ »[٧٩] الذي ينعتونه بِـ « شَوبيتْ » أو « سُوفيتْ » أي القاضي أو المنصف[٨٠] .

---

(٧٧) راودتْني هنا فكرة : من أين اتخذنا ال التعريف؟ هل جاء من إيل «إله»؟ فكل معرّف ندخل عليه أل. فهل أخذنا عن الاسلاف هذا التعريف؟ «المعرب» .

(٧٨) لدى الكنعانيين ربّة بحر تسمّى «أشيراتْ يَمْ» حامية البحر التي لم تكن ـ بعكس مانفكر ـ زوجة «يم» بل هي زوجة «إيل» الإله الأب . و«إيل» كان نشاطه نحو البحر أكثر منه نحو الأرض وإذا كان «يم» ينعت «بموداد إيل» أي حبيب «إيل» فما ذلك الا صفة لن تمر معنا قط ولن نراها قط مرتبطة باسم بعل . «المؤلف» .

(٧٩) كلمة يَمْ ونَهَرْ عربية بحتة . وهذا يدلنا على عمق جذور لغتنا . «المعرب» .

(٨٠) اشارة واضحة إلى الاجراءات العتيقة في التجارب القضائية للماء . ولماء النهر الذي نحن بصدده في تشريع «حمورابي» من الفقرة الثانية . غير ان النهر القاضي في رأس شمرا لايلعب قط في القصيدة دوراً له علاقة بتسميته . «المؤلف» .

سنحاولَ أن نعرّف معنى الفصول الثلاثة أو بالأصح القطع الثلاث التي حفظها الزمن .

يبدأ الفصل بجدال عنيف بين الإلهينْ « يَمْ » و«بعل» . وهنا حالة النص رديئة ، فنحن لانعرف سبب هذا الخصام ، ولكننا في القطعة الثالثة نرى بعض الايضاحات في هذا الشأن . ولاضرر إذا ماقلنا على الفور بأن سبب الشجار هو الذهب ، فكل منهما يبغي أن يستحوذ عليه .

وعلى كل ، فالمتنافسان يبرقان ويرعدان ويتوعدان بعضهما بعبارات تكشف ـ دون شك ـ عمّا يعتمل في صدريهما من مشاعر . ويبدو أنّ « يم » أشد وأعنف ، ونسمعه يستنجد «بعشتار» (أشتارْ) ويطلب منها لابل يأمرها « أن تحطم رأس « بعل » وان تلقيَه في مهواة سحيقة » . وهذه ـ وإن كانت حامية « يم » لم تقم بدورها ، لا بالوقت الحاضر ولا في أيّ وقت ، حتى النهاية .

وبما أن لبعل حامية ـ الإلهة « آناتْ » كنا نتوقع أن تلتقي الربّتان المتشاحنتان وتقع الواقعة . ولكن لم يحدث شيء من هذا . « فآنات » لن تتدخل مثل « عشتار » في كل حوادث القصيدة . فمن هنا أي من غياب الإلهتين نستنتج أننا أمام نوع آخر من الميتولوجيا . ولذا دعا الأوغاريتيون هذه القصيدة باسم «بعل» لاغير؛ ليكون له الدور الأول فيها .

وانتهى السباب بشكل مفاجىء ـ وهذا مايحصل في هذه الأناشيد . فلم يتشابك البطلان بالأيدي ولم يتماسكا ولم يتلاكما ـ إلاّ فيما بعد ـ. أما الآن فقد افترقا أو بالأصح ظلّ « يم » في موقفه وانسحب «بعل » ملتجئاً إلى جانب والده « إيل » . لقد شعر ـ ولا ريب ـ بأنه ليس بالأقوى والأشد .

وليس جليّاً أن « بعل » احتمى بأبيه ، مع ان النص هنا سليم ولكنه لايشتمل على أية اشارة لهذا الأمر ، ومع ذلك يجب أن نتقبل بأن هكذا وقع ، إذ نرى أنفسنا منقولين في المشهد الذي يلي تماماً إلى قلب أو قمة جبل . وقد

كتب اسمه ل ل (فتقرأ : « لالْ » أو « ليلْ » أو « لولْ ») . وهذا الجبل هو مَقر « إيل » . ونرى أولاده الآلهة ومعهم « بعل » نفسه يحيطون به .

وعلى أثر الحادث الذي وقع أرسل « يَمْ » مبعوثين إلى « إيل » ويسأله بعبارات قاطعة تسليم « بعل » . ودنا الرسلُ من الجبل المقدّس . وكان الآلهة في تلك اللحظة يجلسون على الأرض ويأكلون ، فخفض هؤلاء رؤوسهم إلى رُكَبِهم وذلك ليُعربوا عن مقتهم .

واستنكر « بعل » موقف الألهة وسألهم بلهجة ساخطة « أريد أن أعرف لماذا خفضتم رؤوسكم » . ولكنهم لم يجيبوه على سؤاله ، لأنهم لايقدمون حساباً عن أعمالهم لبعل بل لأبيه « إيل » لاغير . وبما أن « إيل » لم يسألهم فلن يحيروا جواباً .

إذن ، رسلُ « يم » حاضرون أمام « إيل » فسجدوا ـ كالعادة ـ لأبي الآلهة ثم نهضوا ليتلوا الرسالة التي حملوها ـ إذ كما يظهر أنه كان هناك رسالة مكتوبة منقوشة على لوحة .

الرسالة مختصرة جداً تحوي عرْض « يم » ومطلبه الوحيد : تسليم « بعل » دون إمهال . وهذا أمر على صورة طلب . ويعنينا آخر كلمات الرسالة ، إذ نقف على سبب الشجار ، وهذه الكلمات هي : « سأستحوذ على ذهبه » أي على ذهب « بعل » .

وهكذا تحدد مطلب « يم » . ويجب أن نقربه من أحد فصول القصيدة الكبيرة وفيه : إن آنات تتبجح بأنها استولت على الذهب إثْر معركة نشبت بينها وبين أعدائها الرهيبين الذين كان « يم » و « نَهَر » من بينهم يمثلان أعظم القادة . وقد أعطت هذا الذهب لأخيها «بعل» . ولذا يريد « يم » أن يسترجعه . ولانستغرب إذا ما رأينا «بعل» يحتمي بأبيه «إيل» فراراً من انتقام «يم» .

لما سمع أبو الآلهة ماتشتمل عليه الرسالة اتخذ قراره على الفور وصرّح : « إن «بعل» خادم «يم» . إذن يجب على إله الأرض أن يقدم لإله البحر الغرامة المستحقة . لقد ربح «يم» الدعوى دون جهد ومن المحتم على «بعل» أن ينفذ مطالب خصمه . هذا هو حكم الإله العلي . أيرضخ للحكم؟ لا ، وهانحن نراه يهجم على الرسل ويضربهم ، وتحاول « عشتار » أن تعيده إلى صوابه فأمسكت بيمينه وشماله ـ كما هو ـ مكتوب ـ ولكنه تفلّت منها وواصل الضرب دون هوادة .

وآخر هذا الفصل ـ الفصل الأول ـ مفقود ، ولكننا نعتقد بأن رسل « يم » لاقوا مصرعهم . لقد تصرف « بعل » على هواه ولم يتدخل أحد .

ينفصل الجزء الثاني عن الأول بثغرة كبيرة ، ونظن انها تبلغ «١٥٠» سطراً . وقد تُلِفَ الكثير منه مما يجعل قراءته عسيرة جداً . ولكن من المؤكد ان إله الآلهة «إيل» أمر المهندس «كاشير» ـ مهندس قصور الآلهة ـ أن يبني قصراً فخماً « لَيَمْ ونَهَرْ » .

هذا الإله « كاشير » هو أحد الوجوه الهامة في الميتولوجيا الكنعانية وأحد الذين تحددت وظيفتهم تماماً . فهو مهندس وصائغ وصانع أسلحة في آن واحد ، وله مسكنان أحدهما يسمّى « كَبْتَرْ » Kptr والآخر « هكبت » Hkpt . و « كبتر » وفقاً لكل الاحتمالات هي « كافتور » في العهد القديم أي « كْريت » أو بصورة عامّة «العالم الايجي» . أما « هكبتْ » فهي مصر «Egypt» التي سميت باسم « ممفيس » المدينة الشهيرة والقديمة جداً .

كان الكنعانيون يعترفون كل الاعتراف بأن لجيرانهم الغربيين مِنَناً كثيرة عليهم . ففي نظرهم إن فن البناء ، إن لم يكن فن بناء البيوت فعلى الأقل فن بناء القصور والهياكل ، قد جاءهم من الغرب ، وكذلك عمل التعدين وربما أيضاً الصناعة الفخارية . ويعزون كل هذه الحسنات المدينين بها إلى الإله الذي يسمونه « كاشير » واسمه مصحوب في أكثر الأحيان بصفة « العامل الماهر » .

لقد نفذ المهندس « كاشير » الأمر الذي صدر عن الأب الإله ، ولكن ـ كمايبدو ـ بعد أن انهى عمله انحاز إلى «بعل» . وسنرى هذا واضحاً في الفصل الثالث والأخير من الفاجعة .

ونسمع «كاشير» يحرّض «بعل» بعبارات ملحّة على مهاجمة عدوه أو عدويْه «يَمْ» و «نَهَر» ، قال له : «اضربْهما ، يجب أن تصرعهما إن أردت أن تمتلك القدرة إلى الأبد » . ولم يحرّض «بعل» على المعركة فحسب ، بل ـ بفضل طاقته ـ صنع له نَبّوتَيْن (دبوسينْ) وقدمهما له . فتناول «بعل» هذا السلاح الرهيب وخاطبه (أي السلاح) كأنه يخاطب كائناتٍ حيةً قائلاً : « اقفزا بسرعةٍ كالنسر واضربا «يم» بين عينيه وبين كتفيه » . هذا وضرب «يم» على جبهته وعلى ظهره بكل ضراوة فسقط أرضاً ، وانهار قصره ـ القصر الذي بناه له «كاشير» بيده ـ بنفس الضربة .

هل مات «يم»؟ لم نتأكد ولكن على كل حال هُزم . و «عشتار» ـ التي كان من الواجب عليها أن تساعده في هذه المعركة الفاصلَة ـ وقفت بمعزل وعلى حذر . ولكنها برزت أخيراً لتوبخ « بعل » على مافعله، قالت : « خجلاً لك » . وكان عليها أن تقول شيئاً آخر ، كما كان عليها أن تقرن القول بالعمل . ولكن لاشيء في الخمسين سطراً الأخيرة من القصيدة .

هذه هي القصة في كل استطاعة ممكنة بمعناها الحرفي ـ الثغرات كثيرة ـ والآن علينا أن نبحث عن الغاية المتوخاة .

لنفرض ، وللحظة ، أن الفصل الثالث جاءنا كاملاً غير منقوص ، فكيف نفسر وكيف نستخرج المغزى؟ لاريب ان المغزى هو هزيمة البحر أمام عنفوان الأرض .

يوجد في ميتولوجية الشرق القديم شيء من هذا النوع ، إننا نتذكر تلك المعركة الهائلة التي نشبت بين الإله البابلي «مردوخ» وبين المارد « تِيامات » في أول الدهر . و «تيامات » هو المحيط . وقد انتصر « مردوخ » بجهد واستطاع

بعـد ذلـك أن ينظم العالم ويضع الكواكب في أمكنتها ويخلق الكائنات التي تسكن الأرض والسماء والمياه . وفي آخر الأمر خلق الإنسان . ولُقِّب « مردوخ » المنتصر على «تيامات» «ببيل»، و «بيل» هو «بعل»، لأن معنى كلمة «بعل» السيد والمولى .

ومع ذلك ورغم ماذكرنا من مناسبات الأحداث ـ رغم النواقص ـ فاننا لانرى أية صلة بين انتصار «بعل» على «يم» وبين هذا الشرح المتعلق بالفضاء الكوني وذلك لسببين هامّين . أولاً : في ميتولوجية رأس شمرا ، بعل لم يخلق العالم ولم ينظمه ولكن «إيل» . و «إيل» ليس أبا الآلهة فحسب ، بل أبو البشر أيضاً ولذا يلقب بخالق المخلوقات . ثانياً: كان من الواجب أن يكون الفصل الثالث في بدء القصة لأنه يتعلق بقصة الفضاء وها نحن نراه في الوسط لابل في الأبيات الأخيرة من القصيدة ذات الفصول المتعددة .

إذن لنعمـد إلى تفسـير آخـر يعرض في الذهن قبل غيره ؛ وهو تفسير نستطيع أن نصفه بالجغرافي . وإليكموه : أراد الشاعر أن يصف الهجوم الذي يقـوم به البحـر كل يوم بحماس أو بدون حماس على الأرض ، وخاصة على شاطىء سوريا الذي نسميه كما سماه الإغريق « فينيقية». فالبحر يهاجم دون توقف فينتصر بعض الأحيان، مثـلاً: لقـد دمّر رفرفاً من الصخور في مدينة « بيبلوس » (جبيل) منذ خمسة وعشرين عاماً . ولكن هذه الأحداث صغيرة وبسيطة ، إذ سرعـان ماتهـدأ العـاصفـة وينسحب المـاء؛ فكأن الأرض قد انتصرت ، ويظل الشاطىء واقفاً أمام البحر ؛ ونستطيع أن نقول : إن «بعل» هو الذي انتصر على «يم» أو الأرض تغلبت على البحر .

ولدينا شرح آخر إلى جانب هذا الشرح ندعوه بالتاريخي[٨١] . من يدري

---

(٨١) لقـد اقترح «هيروزني» في كتابه الحديث (تاريخ آسيا القديمة والهند وكريت) بأن نعتبر القصائد البابلية المتعلقة بالخليقة كملحمة تشيد بانتصارات الأكاديين بزعامة «مردوخ» على السومريين بقيادة المارد «تيامات» حيث المياه تغمر البلاد في قسمها الجنوبي. «المؤلف».

إذا كان لايوجد هنا صدىً لتلك المعارك المتواصلة التي اضطر الكنعانيون أن يخوضوها ضد الغزاة القادمين من الغرب وضد المصريين ـ وهم أناس مسالمون منصرفون لزراعة حقولهم ـ . أولئك الغزاة الذين كانوا يسمونهم بحق « شعوب البحر » . ولئن استطاع هؤلاء المهاجمون أن يفوزوا ببعض النجاحات المحلية فسرعان ماكانوا يختفون بعد قليل من الأجيال عن مسرح الأحداث لأن السكان الأصليين يمتصونهم . ومن هنا جاء: ان «بعل» صرع «يم» . فبعل يمثل البطل الوطني فهو رجل الحريات الكنعانية وله الحق أن يلقب بالسيد والمولى .

اذن «بعل» سيد الأرض ، الأرض المغذية التي تهب دون مَنٍّ استمرارية الحياة . وهي لاتقدم الخبز والخمر فحسب بل تعطي أيضاً الذهب والفضة والحجارة الكريمة وكل مايدخل في نطاق الغرامات التي يدفعها المغلوب للغالب أو العبد لمولاه . وهذا هو كل ماكان يبتغيه «إله البحر» ومايريد أخذه أو استرجاعه . وهذا هو كل ماكان «بعل» يود الاحتفاظ به لينفقه على أعوانه وشعبه .

وإذا كان الذهب هو سبب الخلاف بين «يم» و «بعل» فإننا نفضل التفسير التاريخي على غيره ؛ لأننا نعلم يقيناً : أن سبب القتال والحروب قديماً وحديثاً وفي كل العصور هو السعي لامتلاك خيرات هذا العالم .

هذه الشروح الثلاثة: فضائية وجغرافية وتاريخية ـ وربما تفاسير أخرى ـ تمثلت بالتوالي في أدمغة شعراء «فينيقية» ومفكريها . والخلاصة: إنّ هذه القصص كانت سهلة الفهم عند القدماء وعسيرة التناول عندنا؛ لأنها كانت عندهم حية مفهومة من الجميع .

أهذا ماجال في خاطر «رينان»[٨٢] عندما تكلم عن ميوعة الميتولوجية القديمة وعن تناقضها؟ وليسمح لنا «رينان» أن نتساءل: أين هذه الميوعة وأين هذا التناقض في الميتولوجية القديمة أو في الشروح التي نقدمها اليوم .

---

(٨٢) رينان في كتابه : دراسات في التاريخ الديني ـ «المؤلف» .

الأسطورة المصرية
عن عشتارت وإله البحر

لن نخرج عن الموضوع اذا ماتكلمنا عن قصة حفظتها لنا ورقة بردي مصرية . وهي ـ لسوء الحظ ـ ناقصة . وعرفت باسم اسطورة «عشتارت» ويعود تاريخها إلى السنين الأخيرة من دولة الفراعنة الثامنة عشرة .

وعندما نشرت هذه الورقة عام ١٨٩٩ كان الناس يعرفون بأن المصريين قد اقتبسوا «عشتارت» الربة الكنعانية وتبنوها كما تبنوا غيرها من آلهة آسيا ـ منذ حكم الهيكسوس دون ريب ـ . فمنذ احتل جنود « أحْموسيسْ » الأول وخلفائه الأراضي الفلسطينية والسورية أدخلت إلى مصر الإلهة « عشتارت » وعبدتْها . لقد استقبلها آلهة « ممفيس » بترحاب وجعلوها ابنتهم أو إحدى بنات الإله «فْتاحْ » . ونضيف إلى ماجاء في ورقة البردي بأن «عشتارْت» ـ في مصر ـ كانت حليفة إله البحر المعروف باسمه الكنعاني «يم» .

جاء في الورقة : ان الاله «يم» عندما دخل أرض مصر أظهر ـ عند وصوله ـ غضباً عارماً وحدةً شديدة وهدد بتدمير كل شيء وأنه سيغمر السهل والجبل بأمواجه . إنه يريد أن يفرض سيطرته على جميع الآلهة . وأوشك هؤلاء على الاستسلام ، فتدخلت عندئذ ربّة المحاصيل « إيْرنولتْ » وحاولت بشتى الطرق أن تخفف من تجبّره فقدمت له الهدايا المختلفة : الفضة ، الذهب ، اللازورد . ولكنها فشلت في كل محاولاتها فاستنجدت « بعشتارْتْ » . وانتهى هذا الموقف الحاد بالزواج أو بتوحيد « عشتارْت » وإله البحر .

هذا وإن كانت الوثيقتان ـ المصرية والكنعانية ولاسيما المصرية ـ مبتورتين كثيراً فمن المؤكد انهما شرح لموضوع واحد. ونقول ـ بالقاء نظرة عابرة على أسماء الشخصيات ـ بأن الأصل كنعاني بحت . وإذا كان المصريون أخذوا الفكرة العامة للقصة عن الكنعانيين فلقد صاغوها كما شاءوا . وحضور ربّة المحاصيل

والحصـاد المصرية في الأسطورة يكفي للدلالة على أنهم لم يجمدوا على رواية القصة التي سمعوها ـ ولاشك ـ من أفواه البحارة الفينيقيين أو من أفواه تجار صور وصيدا أو أوغاريت[٨٣] عندما نقلوها إلى لغتهم .

ومن الملحوظ أن أكثر المشاهد ـ إن لم تكن كلها ـ المعروضة في القصص الشعبية لدى مصر القديمة، جرت كلها في آسيا ، واذا ماأخذنا هذا الاسم (آسيا) بالمعنى الضيق فقـد تمثلت في الولايات الآسيوية التابعة لامبراطورية الفراعنة ـ كما حدث في عهد الدولة الثامنة عشرة ـ ويكفي أن نذكر أحداث قصـة الأخـوين ومغـامرات «سينوحيت» والاستيلاء على «جوبيه»[٨٤] . ولكن أسطورة «عشتارْتْ» تشذ وحدها عن ذلك ، لأن حوادثها جرت في وادي النيل مع أن شخصياتها الذين قاموا بتمثيل الأدوار الهامة هم آلهة كنعان . والمهم أيضاً والواجب إيضاحه : إذا كانت مصر قامت ـ في حقل الأعمال الخيالية ـ باقتبـاسـات عديدة عن فينيقية فإن ميتـولـوجية كنعان لم تأخذ أي شيء عن المصريين والبـابليين وذلـك اذا ما حكمّنـا أسـاطير «رأس شمرا»، طالما هي النصوص الوحيدة والأصيلة التي تركته لنا فينيقْية في العصور القديمة .

ومن المناسب أيضاً أن نذكر بأن البحر وأشياء البحر لاتشغل الا مكاناً بسيطاً في تلك القصائد . مع أن سكان «أوغاريت» يعيشون على الشاطىء . ومن الثقة بأنهم كانوا يملكون أسطولاً وأنهم كانوا يقومون برحلات طويلة ، كما كانوا يرون السفن المرابطة في مينائهم ويرون بحّارة غرباء من مصريين وايجبيين وقبرصيين . وكلهم يحب القصص الجميلة ويرغب في سماعها ، فكيف اذن حدث: من ان الملحمة الفينيقية لم تؤثر على «الأوديسّا» ولو بشيء تافه . وهذا بعكس ماكان ينتظره «فيكتور بيرارد» .

لاشـك أن تلك القصائد تعود لعهدٍ لم يكن الفينيقيون فيه قد نازعوا

---

(٨٣) في القصة المصرية، لم يظهر إله النهر مساعداً ليم كما في قصة رأس شمرا . والحقيقة اننا لانملك الا النتَف القليلة من الأسطورة المصرية . «المؤلف».

(٨٤) جوبي يافا المدينة الفلسطينية . «المعرب».

الكريتيين على سيطرة البحر المتوسط ، أو لأنهم اكتفوا بحراثة حقولهم ، كما قال فولتير : بدؤوا بحراثة أرضهم قبل أن يبنوا السفن ويذهبوا للبحث عن جديد في ماوراء البحار .

وبالمناسبة فان سوريي القرن الرابع عشر عرفوا كيف يدفعون الغزاة عن ممتلكـاتهم . وقصيدة «يم» ـ ولها قيمتها التاريخية ـ شاهد على مانقول. انهم لايفكـرون بالاستيلاء على مال الغـير، ولايهتمون إلا بالمحافظة على حياتهم ـ وقتية ولكنها نفيسة ـ التي قدمتها لهم الآلهة .

بعل وإله الموت

لقد ظهر «بعل» في قصيدة «أمير البحر» محارباً ومستعداً دوماً للدفاع عن أرضه ـ مسقط رأسه ـ . أما في هذه الملحمة الشعرية الكبيرة ـ دعاها الأوغاريتيون باسم «بعل» لاغيرـ فاننا نراه يواجه خصماً ومنافساً أشد وأقوى من «يم» . وهو «مُوتْ» أي «المْوت» وبين أيدينا قطع هامّة منها .

لسنـا هنا بصدد ملحمة لها خيالها وإغراقها . ولكن بصدد ميتولوجية زراعية بحتة . وعرفنا مما سبق أن «بعل» كان يقاتل وحده وقليلاً ماكانت أخته «أُنـاتْ» أو «عنات» العذراء تشد أزره . أما هنا فإننا نشاهد تحالفاً وثيقاً بين الأخ وأخته لا لخيرهما بل لخير جميع الكائنات التي يجب الحفاظ عليها والدفاع عنها لدى أي هجوم يقوم به عدو شرسٌ هو «موت» .

لم نجد في علم الرسوم ولافي النصوص المعروفة أي شيء يدل على أي هيئة أو شكل كان الكنعانيون يمثلون «إله الموت» . كما اننا لم نجد رسماً واحداً للآلهة «عانات» . إذ كل الصور التي جمعت في رأس شمرا لاتمثل إلا «بعل» ـ صورة شاب مقاتل ـ لأنها كلها على نمط واحد ومن طراز واحد . ولكن أين رسم «بعل» وعدوه «يمْ» أو «بعل» في عراكه مع «مُوتْ»؟ لم يقع لنا أي شيء من هذا؛ ولم نعثر إلا على عمودٍ أقامه «مامّيا» المصري في أحد محاريب «أوغاريت» .

وقد نُقِش عليه صورة «بعل» مع كتابة هيروغليفية. وهذا النصب يختلف كل الاختلاف عن غيره من الرسوم التي تمثل هذا الإله ، فنراه هنا واقفاً وبيده صولجانه . بيننا نراه في بقية الرسوم حاملاً سلاحه ، مستعداً للقتال .

وكلمة « بعل » صفة لا اسم ومعناها «السيد أو المولى» . أما اسمه الحقيقي فهو بلاريب «حَدَد» أو «تموز». أما اسم «عانات» فيبدو أنه اشتقاق من كلمة «عينْ» ومعناه «نبْع». ويوجد بين آلهة «أوغاريت» إله آخر اسمه «آنْ» ولكنه لايمثل أي دورٍ في مختلف مشاهد هذه الميتولوجية ؛ وربما اكتشف دوره فيما بعد .

الإلهة « عانات »[٨٥]

ليست «عانات» أخت «بعل» فحسب بل هي ـ كما يبدو ـ عشيقته أيضاً . ولبعل ثلاث بنات : «الصاعقة» و «الندى» و «الأرض» . ولقد عرفنا من بعض نصوص العهد القديم (الملوك الأول الاصحاح ١٨)[٨٦] بأن بعل هو إله الجو وسيد المطر الذي يغذي التربة . وفي قصائد رأس شمرا يُنعت «بفارس الغمام». وهذا يعني أنه كان يسكن في تلك المنطقة المتوسطة بين السماء والأرض . فهو إذن أسمى من عالم البشر مع أنه قد قضى فيه ـ عالم البشر ـ قسماً كبيراً من حياته إبّان تمريناته .

هل كان «بعل» ابن «إيل» البكر؟ لانؤكد هذا، ولكن من الواضح أنه لم يكن الابن المفضل بل بالعكس . فمنذ البداية حتى النهاية نراه والإله الأعلى على طرفيْ نقيض . فما السبب؟ هل ارتكب بعل ذنباً؟ أو هل يحسده إيل؟ وهل

---

(٨٥) لقد فضلنا أن نكتبها «عانات» بالعين لأن اسمها مشتق من عين وبالتاء المبسوطة لا المربوطة لأنها ساكنة الأخير. «المعرب».

(٨٦) الاصحاح بكامله يتحدث عن النبي « إيليّا » وأبناء « بعل » فذاك يدعو « يهوه » والآخرون يدعون «بعل» لإنزال المطر. وانتهى التحدي بفوز «إيليّا» وهطل المطر عند دعائه. «المعرب».

يعرف هذا مقدما بأن «بعل» سيخلعه عن عرشه ويحتل مكانه في ادارة الكون؟ وهل يقوم بأعماله المعادية لبعل ليؤجل هذا الحدث الخطير؟ ولذا يسعى ويعارض بكل قواه مشاريع «بعل» الذي تسانده «عانات» العذراء بعاطفتها وحبها .

لم يحدث بين «بعل» و «موتْ» في بادىء الأمر إلا مناوشات بسيطة . فمنذ التقيا لأول مرة عبس كل بوجه الآخر كثورين وحشيين ثم ركضا كحصانين في حلبة ثم عضا بعضهما كأفعوانين . ولكن ـ قال الشاعر ـ إذا كان «موت» قوياً فان «بعل» قوي أيضاً . وعاقبة المعركة تظل غير حاسمة .

نستطيع أن نتنبأ بأن المنتصر سيكون «موت» ولكننا نخاف من هذا التنبؤ. وطال العراك ، وتدخلت «عاناتْ» وأجبرت «موتْ» أن يقدم كدليل على وفائه الغذاء والشراب اللذين يحتاجهما «بعل» مثل بقية الآلهة ومثل جميع الكائنات الحية . وتظاهر «موت» بالطاعة والخضوع لأوامر الإلهة ، إذ نراه يتفانى في خدمة «بعل» بينما يُثير ضده جميع السكان المجاورين حتى خدم الآلهة نفسهم .

ولما علمت «عانات» بالأمر استشاطت غضباً وانزلت الضربات المتوالية . فقتلت أولاً «أبناء المدينة»[٨٧] ثم أجهزت على كل حي «على شاطىء البحر» وأخيراً «بَشَر الشرق» . ولانعرف معنى هذه التعابير بوضوح .

وعندما انتهت هذه المجزرة ـ التي وردت بقليل من الكلمات ، رأت « عانات » بارتياح شديد ترتفع عند قدميها كومةٌ من الرؤوس التي قطفتها وفوق رأسها تتطاير الأيدي التي بترتها كغمامة من الجراد تموج في الهواء . فجمعت «عانات» الرؤوس والأيدي وكدستها في جرابٍ حملته على ظهرها .

وبقي مجرمون ومتهمون آخرون ، مجرمون كبار يسكنون في «بيت عانات» أو في هيكلها وهم سُعاتها وجندها الذين حرفهم «موتْ» عن واجبهم .

---

(٨٧) في فلسطين كثير من المدن التي تحمل اسمها مثل «قبريات أناة» و «بيت أناة» (بيت يعني هيكل) والأولى تقع في أرض نفتالي على مسافة متساوية بين صور ووادي الاردن. «المؤلف».
والثانية قريبة من جبل الزيتون قرب القدس. «المعرب».

وبما أنه لايوجد لديها سلاح آخر فاستعانت بأثاث بيتها : المناضد والكراسي والمناضد الواطئة ، وطفقت ترضخ بها رؤوس المتمردين ولم تتوقف حتى شبعت . وهاهي تغوص حتى ركبتيها في دم ضحاياها . فابتهجت من كل قلبها . ولنأخذ عبارة الشاعر القوية : « لقد امتلأ كبدها ضحكاً وقلبها فرحاً » . وأخيراً غسلت يديها من الدم الذي سفحته أمواجاً .

هذه هي «عانات» الثائرة المنتقمة لشرف «بعل» ـ لقد كان شرفه في مهب الريح ـ. وهنا لابد لنا من أن نذكر بأن المصريين زمن غزوهم ومعاركهم الكبيرة ـ عهد تحوتمس ورعمسيس ـ قد اتخذوا هذه الإلهة الكنعانية المتوحشة « ملكة حروبهم » .

وربما كانت معرفتهم لها في عهد غزو السوريين ـ الهيكسوس ـ لمصر ، إذ أدخلوها عام ١٧٥٠ق.م إلى الديار المصرية . وعلى كل حال فقد استُقبلَت خير استقبال على طول ضفاف النيل ، وكان لها هيكل خاص بها في زمن «تحوتمس» الثالث في «طيبة» عاصمة مصر نفسها . ونعرف أيضاً أن «ساتي» الأول مؤسس الدولة الثامنة عشرة أطلق على جياده العزيزة وعلى التي قرنها إلى عربته الحربية اسم «عاناتْ راضية». وأيام حكم رعمسيس الثاني ـ ابن ساتي الأول ـ في القرن الثالث عشر، ظهرت «عانات» كحارسة لفرعون وأسرته وامتدت سلطتها حتى أصبحت حامية مصر كلها . وكان اسم ابنة «رعمسيس» المفضلة «ابنة عانات» وهكذا أضحت هذه الإلهة الفينيقية الأصل مصرية ومُثِّلَتْ في مصر جالسة على عرش ممسكة بيدها اليمنى رمحاً وبالثانية فأساً حربية . وكان رعمسيس في المناسبات الشعبية أو عندما كان يتخذ قراراً يتعلق بمستقبل شعبه أو امبراطوريته ، يبتهل «لعانات» ويستشهدها . وكان لايطلب من آلهةٍ مصرية بل من «عانات» المنتصرة كشاهد على عمله ونيّته .

ولدى المصريين إلهة تشبه «عانات»، هي «سِيكْهيتْ» لها رأس لبوءة . ويقولون في بدء الزمان كان الرجال يعملون مثل الآلهة فتآمروا على الإله «راع» (الشمس) . وعند ذلك قامت « سِيكْهيتْ » وبطشت بالمتمردين وقتلتهم طيلة

نهار كامـل. وعند المساء ، ألقى «راع» نظرة على المذبحة فأخذته الشفقة ، وقضى أن يُترك الباقون ـ الذين افلتوا من المجزرة ـ أحياء . وبالدم الذي كان يغطي الأرض خلط جِعَةً (بيرة) مع عصير اللفّاح[88] . وفي الصباح الباكر عندما استيقظت «سِيكْهيتْ » من نومها شربت من هذا الخليط المحلّى إلى درجة ما، فسكرت حتى نسيت كل شيء .

والأسطورتان : أسطورة « سيكهيتْ » وأسطورة «عانات»، تتلاقيان في بعض الأحداث. ولكن الفرق كبير بينهما. لقد عاقبت «سيكهيتْ» المتمردين ودامت المجزرة نهاراً كاملاً ، ولم يتكرر هذا العمل بينما «عانات» قامت بمعركة طويلة الأمد فهي عبارة عن سلسلة متقطعة من الصراع . وغاية الاثنتين واحدة هي «دَعْم سيطرة بعل»[89] .

فتح جبل الشمال

جزمت «عانات» أمرها ، في بعض الأيام ، على أن تغزو جبل «صافون» أي جبل الشمال لأن سفوحه تُخبيء المعدن الثمين الذي نسميه الذهب ويسميه الفينيقيون «خاروسْ» والاغريق «كْريزوسْ»[90] .

وللاستيلاء على هذا الذهب لابد «لعانات» أن تحارب الإلهينْ «يَمْ» و «نَهَرْ» أي البحـر والنهـر . ولكن في طريقهـا ستصطدم بكائنينْ رهيبينْ كُتِبَ اسمهما: ت ن ن Tnn و ل ت ن Ltn[91] . فالأول هو التنين الذي ورد ذكره في أسفار العهد القديم الشعر؛ والثاني يجب أن نقرأه «لوتان» بدون شك، وليس

(٨٨) اللفّـاح ثمـر شجرة عريضة الأوراق ، وهو ذو رائحة كريهة ، كان القدماء يستعملون عصيره في السّحْر. «المعرب».

(٨٩) «بعل» عند الفينيقيين هو «راع» عند المصريين. «المعرب».

(٩٠) قربْ «خاروس» من «كريزوس» «المعرب».

(٩١) يجب أن لاننسى أن ليس عند الفينيقيين حرف الألف الطويلة والمقصورة ـ «المعرب».

الا الشكل الأول لاسم «ليفياثان»[٩٢] . وقد جاء في المزمور الرابع والسبعين بأن «للفياثان» عدّة رؤوس. وفي رأس شمرا «للوتان» سبعة رؤوس[٩٣] . وإذا كان أخيراً في سِفْر أيوب أحال الله «ليفياثان» إلى العجز بوضع عود من الخيزران في أنفه وبثقْب منخريه بكلّابة ، ففي قصيدة «بعل» كممت «عانات» «لوتان» حتى لايصرخ. واننا لنستغرب من هذا التشابه بين الميتولوجيا وبين التوراة . الحق يقال ان هذا التقارب عجيب .

وهزم «تانّين» و «لوتان»[٩٤] وأصبحت الطريق إلى الشمال مفتوحة أمام «عانات». فواصلت هذه سيرها يرافقها «بعل» أخوها وكانت ترشده سواء السبيل . وسرعان مااستحوذا على الكنز وعلى الجبل في نفس الوقت. وأصبح منذ الآن جبل الشمال المقرُّ الخاص «لبعل» .

بيت بعل

أصبح «بعل» يملك الذهب والفضة ـ وإن كان المعدنان قد جاءاه من منطقة بعيدة ـ وينقصه الآن بيت ، فيستطيع أن يترك حياته المتشردة القلقة التي فرضها عليه أبوه الإله إلى الأبد .

وهذا ـ ولاريب ـ ماكانت تصبو إليه « عانات » . وقد ثارت الطبيعة كلها بدورها ضد هذا الظلم الذي ذهب «بعل» ضحيته . فحفيف أوراق أشجار الغابات وشكوى الأمواج المتواصلة التي تتكسر على الحصا وأسرار النجوم التي

---

(٩٢) مر معنا ذكره. وجرى اسمه للدلالة على شيء هائلٍ جداً ومتوحش جداً . وهو يمثل الشيطان «المعرب».

(٩٣) العبارة في التوراة (المزمور الرابع والسبعين): كسرت رؤوس التنانين على المياه، أنت رفضت رؤوس «لِوياثان» جعلته طعاماً للشعب لأجل البرية «المعرب».

(٩٤) هذان الماردان هزما وأحيلا إلى العجز لابيد إله بل بيد إلهة عذراء. ونرى أن هذا لا يرى في العالم الكنعاني فحسب بل عند غيرهم . «المؤلف».

تتبادلها أثناء الليل مع المحيط واحتجاج الكون؛ فجميع الموجودات كلها ثائرة ضد طغيان الإله العالي نحو الإله الشاب .

أمام ثورة العناصر العارمة وجواباً على هذه الضجة التي ارتفعت من كل مكان قرّرت «عانات» أن ترى الإله «إيل» لتسأله وترجوه أن يرفع الحظْر الذي فرضه وكان من عاقبته إبعاد «بعل» عن المجتمع الإلهي .

ذهبت «عانات» ضاربة الأرض برجلها واجتازت بخطوات ثابتة المساحات الرحيبة التي تفصل عالم البشر عن عالم الآلهة لتصل إلى تلك البلاد حيث الأنهار تصب في المحيط ، مقر الإله الأب .

ما إن رآها «إيل» تتقدم نحوه حتى ارتفع صوته وتلفّظ بقَسَمٍ كبير ـ لم يزل معناه الحقيقي غامضاً علينا ـ « أقسم بالمجالس السبعة المقدسة ». ثم دعاها لتعرض عليه سبب مجيئها . ولكن «عانات» الإلهة الجريئة تتردد هذه المرة بالجواب ، وأخيراً كان حديثها استعطافاً طالبة كرم نفس أبيها ووعدته أن تعيد له شبابه، أو على الأقل أن تعيد لشعره ولحيته صباغهما الأول ـ وكان أحمر مثل الدم ـ وإن كانت «عانات» تقدم وعداً كهذا ، وإن كانت في موقف يتحتم عليها القيام بهذا الوعد ، فذلك بمقتضى ماكان يسمى « أروكات » وهي كلمة معناها «امتداد». ويبدو أن هذه الكلمة مختصرة من عبارة «امتداد الأيام» أي الخلود . (إذن أروكاته = امتداد أيامه) .

كان من المفروض أن لايظهر الإله «إيل» بمظهر القاسي العديم الرحمة أمام تملّق الإلهة «عانات» في مطاليبها. ولكنه إله ذو تجربة كبرى فهو لايَعِدُ بسرعة ولايلقي كلامه جزافاً . ولذا أجابها بعبارتين قصيرتين: « أنا واثقٌ يا ابنتي أن لاواحدة من الإلهات أمهر منك . ماتبغين حقاً، قولي لي»[٩٥] .

وتهيأت « عانات » لتكشف عما تريده تماماً . ولكنها توقفت في بادىء الأمر ، انها تود أن ترى استقبال الإله مشجعاً لها . ولذا اكتفت بأن قدمت

---

(٩٥) إن «عانات» أو إلهة أخرى تشبهها ، ستحمل يوماً لقب «إيريكْ هايمْ» ومعناه «طيلة الزمن». ومن هنا جاء أصل اسم هيكل صقلية الشهير وكان مكرساً «لزهرة ايريكس» «vénus d'Erix» أو «الزهرة الإيريسينية». «المؤلف»

خضوعها ثانية بهذه العبارات : « قرارك الحكمة نفسها ، وأنا متأكدة انك تملك الحياة الدائمة ، إن الحكمة خاصة بك وان قرارك دستورنا » .

وهكذا تخضع «عانات» لأمر الإله ، قبل كل شيء . ولها الثقة التامة به . وتأمُلُ جيداً ان الحكم الالهي سيكون مطابقاً للحكمة وانه سيكون تعبيراً عن العدالة .

ثم ودون أن تضيع الوقت أعلنت بأن «بعل» هو الذي أرسلها . وقالت بأن بعـل هو قاضينا وهو القاضي الأعلى[٩٦] . وقدمت «عانات» للإله «إيل» هدايا «بعل» وهي أوان مختلفة فيها عطور ولاشك. وأخيراً صرّحت عن سبب مجيئها . وبكلمات سريعة ذكّرت بأن الآلهة ـ البعض منهم على الأقل ـ تأثروا من حالة «بعل» الغريبة إذ لابيت يأويه مثل بقية أبناء «أشيراتْ» .

وضمّت «أشيراتْ» صوتها إلى صوت «عانات» . فركبت حماراً صغيراً[٩٧] مزداناً وذهبت للقاء زوجها لتقدم له طلباً كانت قد اتفقت عليه مع «عانات» . فرضي الإله «إيل» أو ـ على الأقل ـ تركها تعمل .

سيشـاد بيت «لبعل» كبيت «يم» الذي بناه «كاشير» مهندس الآلهة. فكان الحطابون يقطعون أشجار الأرز من لبنان ومن حرمون ليعملوا جسوراً للسقف وخادمة «أشيرات» تخلط الطين ـ إذ من القرميد لامن الحجارة سيقام البنيان وهي عادة بابلية ـ .

وبعد ذلك صعد « كاشير » ـ فهو صائغ ماهر كما هو مهندس ـ نحو كوره (مشغل الحدادة) الواقع في الجبل . ثم أخذ كماشاتِه وصنع آلاف مئات الآلاف من الأواني الفضية والذهبية، وبالحقيقة صنع الآلاف من الأواني الفضية ومئات الآلاف من الأواني الذهبية ، لأن الذهب في رأس شمرا أكثر من الفضة بعشر مرات .

---

(٩٦) كلمة Suffete كانت تطلق على القضاة العالين في قرطاجة وصور ـ «المعرب»

(٩٧) هو حمار كان يستخدمه «إيزيس» كمركوب له ـ كما كتب «أبولي» ـ «المؤلف»

انتصار « بعل »

وجمعت لوازم البنـاء وأصبحت جاهزة للعمل وانتهى البيت بسرعة ، وسيدشّن بأبهةٍ كبرى. والطقوس التي ستقام لهذه المناسبة تشبه تماماً[٩٨] الطقوس التي احتفل بها الملك سليمان عند انتهائه من بناء الهيكل وتقديمه هدية لله .

وفي رواية أخرى لم يتم إجلاس «بعل» على العرش على جبل «صافون» ولكن على جبل آخر كتب اسمه «أ م ر» Amr وهو بدون شك «أمورّو» المذكور كثـيراً في النصوص البابلية وهو موطن الأموريّين في التوراة . ويبدو أن هذين الاسمين كانا مختلفين ولكن لمنطقة واحدة. «فأمورّو» تعبير جغرافي أو تعبير في علم السلالات و «صافون» اسم شعري أو ميتولوجي للجبل المقدس .

إذن حصل التتويج على جبل « أمورّو » ـ كما تقول الرواية الثانية ـ وهناك جرى مسْـحُ «بعـل»، وبهذا المسح يصبح سيد العالم. وقد قام به (بالمسح) «الرفائيم» (انظر ماتقدم) الذين هم خدم الإله الشاب ـ في أسفار العهد القديم التـاريخية ـ و «الرفائيم» شعب قديم وطنه فلسطين ولكنهم في كتب اسرائيل الشعرية وفي شواهد القبور الفينيقية في العصر القديم، ليسوا إلا أرواح الذين تركوا الأرض أو ظلالهم .

وهكـذا بفضل «عانات» أصبح «لبعل» بيت أنيق خاص به، وأصبح الآن يستطيع أن يمارس سيطرته التي حرم منها سابقاً والتي كان يحلم بها مع أخته . ولكن ـ وكما هو مكتوب في قدر الإله الشاب ـ لم يكن هذا النجاح إلا قصير الأمد ، إذا ارتفعت ألسنة النار فجأة في القصر وفي لمح البصر أصبح رماداً .

من أشعـل هذا الحـريق؟ لاشك انه «مُوتْ» ، «موتْ» نفسه أو أحد أعوانه . لقد انتصر في دوره وفاز على بعل وكأنه فاز على الحياة . واضطر «بعل» أن يعود إلى وجوده القلق الذي كان يعيشه من قبل والذي أنقذته منه «عانات» .

---

(٩٨) الفارق بين الاحتفالين هو في رأس شمرا لم يستوعب الاحتفال الا بضعة سطور وفي التوراة اخذ فصلاً كاملاً (كل الاصحاح الثامن من الملوك الأول). «المؤلف»

موت « بعل »

هل رضي «موتْ» بما حدث؟ وهل يقف عند هذا الحد؟ وهل يكتفي بإزاحة «بعل» عن عرشه؟ لا ولسوء الحظ ، بل سيواصل انتقامة حتى النهاية .

يروون أن «بعل» خرج في بعض الأيام يمشي في السهل الرحيب وحده ، وبينما هو يقطع الأدغال اصطدم بشرذمة من الكائنات المفترسة تُدْعى «الضواري» . وكان لهم قرون في جبهتهم مثل الثيران وسنام في ظهورهم مثل «الجاموس» ولكن كان لهم وجه إنسان ، وجه كوجه «بعل» نفسه ـ كما قال الشاعر ـ فظنهم الإله الصياد في بادىء الأمر أصدقاء أو إخوة له ، وخطر له انهم ولدوا من غراميات الإله الأب مع خادمة «أشيرات» . فمثله مثل «إبراهيم» مع «هاجر» خادمة «سارة» التي ولدت اسماعيل في الصحراء . وقد ورد ذكر ذلك في التوراة (التكوين الاصحاح ١٦ والعبارة ١٢) بأنه متوحش مثل حمار وحشي[٩٩] .

كم كان هؤلاء «الضواري»؟ ربما كانوا اثنين لاغير ، لأن الكلمات من نوع المثنى ؛ والمثنى المذكر والجمع في رأس شمرا على صورة واحدة ، ولكن ألا يكفي هذا العدد أن يعيق الإله الشاب عن مواصلة طريقه .

وعلى الفور نشبت المعركة بين الضواري وبعل . وبدا هذا كالمنتصر في أول الأمر، فألقى أعداءه أرضاً ووطئهم بقدميه وأشبعهم ضرباً بكعبه . ولكنهم تغلبوا عليه بسرعة فسقط وغُلِبَ «مثل ثور» .

هذا التشبيه « مثل ثور » كثير الورود . فمن قبل كان الضواري مثل الثيران بسبب قرونهم وها « بعل » يسقط بكل ثقله على الأرض « مثل الثور » . ولاشك مثل الثور الذي يضحي به الكاهن . وهذا ماأراده الشاعر وان كان

(٩٩) العبارة في التوراة : «إنه يكون إنساناً وحشياً يده على كل واحد ويد كل واحد عليه» . «المعرب» .

لايصرّح به بل مرّ عليه بكل رزانة . ويجب أن يُعْتَبر «بعل» ضحية شبيهة بالتي تُقَدَّم قرباناً ؛ ضحية يقربها الموت والتي لابد منها لأنها ضرورية .

وفي اللحظة التي سقط فيها «بعل» تلفّظ ببضع كلمات وكأنها صلاة موجهة إلى « ملك العدالة » لأنها تنطبق تماماً على الإله «إيل» أبي الآلهة . ويبدو أن «بعل» تذكر قرار الإله . إذ لايحدث شيء من خير أو شر الاّ بارادة الإله الأكبر . وما «موتْ» الاّ آلةٌ في يده .

قلقت «عانات» من سكوت أخيها وغيابه ، انها لم ترافقه هذه المرة ـ مع أنها كانت دائماً رفيقة دربه ـ فطفقت تبحث عنه . فجابت الجبال وجابت الأودية . ولما وجدت الجسم الملقى ، كان أول حركةٍ أبدتْها ـ وقبل أن تعبّر عن الألم الذي يعتصرها ـ أن عادت للقاء أبيها الذي كان يجهل واقعة الحال، أو يتظاهر بأنه يجهلها وصرخت به قائلة : « مات « بعل » ، مات سيد الأرض ، تعال معي لترى الذي كان جمال العالم والذي هو اليوم لقى في ميدان المذبحة . » .

فهبط عندئذ الإله الشيخ ، نازلاً درجات العرش واحدة واحدة ، كان ينـزل ويتوقف لدى كل خطوة ، وكما هو وارد في الأسطورة : « وجلس على الدرجة وجلس على الدرجة » . . وهذا يدل على أنه كان يجلس على درجات العرش بالتوالي . ولما وصل إلى أسفل، جلس أرضاً ليأخذ التراب وينثره على رأسه .

هذا عمل معروف عند الشرقيين ، ولكن العادة : أن الأحياء ينثرون التراب على رؤوسهم دليلاً على حزنهم العميق ، وهنا في قصيدتنا ، أمير الآلهة هو الذي يقوم بالنثر ليبرهن عن أساه .

أما «عانات» فقد بكت شلالات من الدموع، من الدموع الصادقة بكل تأكيد . والعبارة المستعملة هنا تستحق البروز . فالشاعر يقول من «إن الإلهة شبعت من بكائها كما لو كان خمراً». وربما يعني هذا أنه كان في ألم «عانات» شيء من اللذة أو من الأمل الكبير .

ولم تكن وحدها في هذه المأساة الرهيبة ، بل كانت إلى جانبها إلهة الشمس التي تدعى «شاباش» تساعدها وتواسيها. والتفتت إليها «عانات» وقالت : ارفعي جثة « بعل » على كاهلي . . ونقلت الإله القتيل بجهد إلى كبير ، إلى قمة «جبل الشمال» الذي شمخ بأنفه عندما أصبح منذ حين مركزاً لقصر أنيق . وعندما دفنته أقامت على قبره قرباناً ضخماً يسمح لأخيها أن يقضي حياة هادئة خلال الأشهر الطويلة التي يمضيها بين أحضان الأرض .

لقد قرّبت سبعين جاموساً وسبعين ثوراً وسبعين خروفاً وسبعين وعلاً وسبعين تيساً وسبعين حماراً . فكان المجموع أربع مئة وعشرين حيواناً . وهذا أكبر قربان ذُكِرَ ووُصِفَ في قصائدنا .

وما إن انتهت من تقديم هذه المذبحة حتى ذهبت لترى والدها . وكانت « أشيراتْ » ـ أم الآلهة ـ واقفة إلى جانبه وأخبرتها أو ذكرتها بعبارة فيها عظمة بأن «بعل» مات .

وطلب «إيل» من «أشيرات» بأن تعطيها دون إمهال أحد أبنائها ليحكم بدلاً من الفقيد . وكانت «اشيرات» هذه تعرف ان السلطة ـ سلطة «بعل» التي كان يتمتع بها ـ يجب أن توهب لأحد الأبناء شريطة أن يكون مُلِمّاً ببعض العلوم ـ وربما كان «بعل» يجهل بعض هذه العلوم ـ وقد أشير بكلمة « ي ل هـ ن » ـ ونحن بدورنا لانعرف معناها ـ وكان الجدل وجيزاً جداً وان جرى بحماس . وانتهى إلى تعيين أحد الأبناء ـ ويسمّى «عشتار» بديلاً عن «بعل». ويجب أن نقرّب هذا الاسم «عشتار» من اسم الإلهة «عشتار ـ عشتروت». ونحن نعلم بأن «عشتروت» أو «عشتار» لم تكن صديقة «بعل». إذن لنتساءل : هل هي عشتار نفسها أم إلهة أخرى كان « بعل » أمين مستودعها ؟ وليس هذا إلا افتراض وافتراض شارد لأن غموض النص والثغرات المعترضة والإيجاز الكبير ، كل هذا لايسمح لنا أن نقدم المعنى جلياً .

ولما علمت «عشتار» بهذا الانتقاء أعلنت قبولها بكلمتين ورضيت أن

تجلس على العرش الذي تركه «بعل» شاغراً . وما إن استلمت هذا المنصب حتى أمرت بأن تدار الكؤوس على من حولها . ولكن النص هنا مبتور ، ولاذكر لعشتار في القطع الآتية .

« عانات » تنتقم لموت « بعل »

كان أمناء « عشتار » يعرفون بأن موت بعل ليس إلّا وقتياً . إذ منذ القدم كان « بعل » يختفي ستة أشهر في كل سنةٍ ثم يعود إلى النور . ومع ذلك برغم التجربة أو العادة المعروفة فقد كان أمناء «عشتار» في نهاية كل شتاء يقلقون ويتوجسون وربما كانت «عانات» نفسها عرضةً لهذا القلق والوسواس .

وعلى كل حال ، فالسؤال يطرح نفسه كل سنة : هل نعرف ان نهاية العـالم قريبـة؟ ـ إذا تأخر الربيع ـ. واذا تُجُنِّبَتِ الكارثة أو تأخر وقوعها فمن الاحق بالشكر ، إذا لم تكن الإلهة «عانات» .

ان مبعث «بعـل» لايحدث قط بصورة آليةٍ كما يقال . ولن يكون قط فورياً. ولايكفي سفـح الـدموع عليه ولاتقديم القرابين على ضريحه . فمن المحتم اللازب مطاردة القاتل أو مطاردة الذي هيأ الشرك ونَصَبه ليقع فيه .

إذن، ذهبت «عـانـات» تبحث عن «مـوتْ» ولمـا عثـرتْ عليه أوقفته وصرخت في وجهـه: « أعِـدْ إليّ أخي ». وبـدا « موت » منـدهشاً متظاهراً بالاستغراب فأجاب بغباء : «ماذا تسألينني » فكأنه يقول لها : «هل أنا حارس أخيك؟» وهكذا حاول «موتْ» أن يبرىء نفسه ليلقي بالتهمة على غيره وان يجعـل السـامـع يعتقد انه لاناقة له ولاجمل . ولكن «عاناتْ» تعرف من هو غريمها وأعادت الطلب. ولكنها لم تُلْق أسئلةً في هذه المرة فالوقت ليس وقت كلام . إن «موت» هو المجرم ويجب أن ينال العقاب دون تأخير . فأمسكت به وشـطرته إلى شطرين بضربة منجل ثم أحرقت جثته وغربلتها ثم جعلته بين

حجريْ رحىً وطحنته وألقت ببقاياه كطعام للطيور[١٠٠] . وهكذا فان «موت» لم يكن خالداً فهو اذن مثل «بعل» وسيحرم من الدفن .

لهذا الفصل أهمية خاصة لأنه يُظهر في بضع كلمات حقيقةَ طبيعة «موتْ» وبالمقابلة طبيعة «بعل» الحقّة . لقد أخذت «عانات» «موتْ» وشطرته إلى قسمين بضربة منجل ثم غربلته وطحنته بين حجريْ رحىً ، ذلك أن «موتْ» أو إله الموت قد تمثل ـ دون شكٍ ـ بشكل إنساني . فهو يرمز إلى سنبلة القمح ، السنبلة التي يقطعها المنجل ، اذا ماأردنا صنع الخبز الذي هو قوام الحياة ، اذن «فموتْ» هو إله الصيف وبفضله تنضج المحاصيل ويختفي بعد الحصاد مباشرة ، والحصاد لايهب الحياة إلا بعد أن يقطع .

واشتراكُ هاتين الفكرتين في الموت والحياة ، في الحياة التي تنبثق من الموت ، الموت الخالق للحياة قضيةٌ عامة ، ليس في فينيقية ولا في رأس شمرا فحسب بل نراه في كل مكان من العالم ، كما أشار بذلك السر «جيمس فرازر» .

بعث « بعل »

والآن مات « بعل » ودفنته « عانات » بيديها ، ومات «موتْ» من ضربات الإلهة الحاقدة .

ولكن يجب أن لاتمتد هذه الحالة طويلًا، لأنّ العالم لايستطيع أن يبقى محروماً من وصيبّه . ولذا سوف يتبادر إلى الذهن بأن «بعل» سيولد قريباً ، وأن الأرض ستتغذى بماء المطر وستصخب الأنهار بأمواج من العسل .

---

(١٠٠) في القرن العاشر من الميلاد ، ، كان سكان حرّان ، وكانوا وقتئذٍ وثنيين ـ في ميزوبوتاميا العليا يُقيمون في منتصف تموز احتفالات تبكي فيها النساء على «تاوُزْ» (يعني تموز) الذي سحق مولاه عظامه وذراها في الرياح الأربعة . ولاشك ، ان هذا الحادث هو إحياء لمعتقدات سابقة . ولكن يجب أن نلاحظ ان «تاوز» حران لم يسقط من طعنات حيوان وحشي مثل «بعل» أو مثل «أدونيس» . إن مولى «تاوز» استعمل نفس الأسلوب التي استعلمته «عانات» في قتل «موت» في أساطير رأس شمرا الشعرية . «المؤلف» .

وكان «إيل» أبو الآلهة أول المبتهجين كما كان أول المحزونين لموت « بعل» وأول من لبس السواد حداداً عليه . ولما وصله الخبر كان جالساً على عرشه ـ حسب عادته ـ فطفق يرفس برجليه ويضحك من كل قلبه ويصرخ قائلاً : « أستطيع الآن أن استريح ، طالما أن « بعل » حيٌّ وطالما أن سيد الأرض يعيش » .

وهكذا ، فإذا كان الإله «إيل» أبو الآلهة قد سُرّ من قيام «بعل» من بين الأموات ، فماذلك إلّا كما قال في نفسه بأنه يستطيع أن يستريح ويجب علينا أن نستنتج من تصريحه هذا بأن غياب «بعل» زاد في متاعبه وأعماله . ألم يعيّنْ هو بنفسه بعد أن سمع نصيحة «اشيراتْ» خلفاً له أو بديلاً عنه وهو «عشتار» أحد ابنائه ، لقد رضيت بطيبة خاطر أن تقوم بهذا الدور الصعب الخطر ؟ ولكن ، ربما لم تكن «عشتار» محلاً للثقة ولم تستطع أن تقوم بالمهمة التي أوكلت إليها ، فحدثت مضاعفات جديدة ، كان الجميع في غنىً عنها .

ومهما كان الأمر فان «بعل» حي . وقد أعلنوا ذلك وكرروه في كل مكان ولكن لم يره أحد . فتملك القلقُ النفوس . أهو خبر كاذب ؟ إذ كانوا يرددون ويتساءلون : أين «بعل» ، أين سيد الأرض ؟ إننا في حيرة تامة[١٠١] . . .

لماذا هذا التأخر؟ ألم يُبعثْ «بعل» من بين الأموات ؟

ربما كان شعراء كنعان يريدون أن يعبروا بأن سقوط الأمطار ـ التي هي دليل قاطع على عودة «بعل» قد انقطع وامتد الصحو ، وماسقط لايكفي لاخضرار الحقول .

وبناءً على هذه الظنون أرسل الإله « إيل » الإلهة شَمَش (الشمس) تبحث عن «بعل» . ولاأحد غيرها ـ وهي التي تسمّى « نور الآلهة » يستطيع

---

(١٠١) لقد أعلن الخبر الجديد بواسطة حلم . ورؤى الحلم مرتين على التوالي . وهذا التكرار ـ على مايبدو ـ مخالف للشريعة ، فاستنتجوا من ذلك أن الكاتب قد أخطأ أو كما يقال وقع التباس . ولكن من المحتمل أن التكرار كان مقصوداً وأن الشاعر أراد أن يشير إلى أن الحلم وقع مرتين في نفس الليلة أو في ليلتين متواليتين . «المؤلف» .

أن يكتشف المكـان الذي اختبأ فيه. وذهبت يتبعها الإله. ستعثر عليه حتما وستعيده إلى وجه الأرض . ولكن النص لايسمح لنا أن نعرف كيف جرت الأمور .

ولاندري ولانستطيع أن نتصور ـ وقد قارنّا هذه الأسطورة مع غيرها من نفس نوعها ـ بأية صورة ظهر الحماس على الأرض الوالهة بعودة سيدها .

وهكذا ، فان «بعل» يرمز إلى الحياة التي تتجدد كل ربيع ، في الصيف يتفتح الربيع ولكنه يذبل ويختفي في فصل الخريف . بعل حياة النباتات والنباتات سبب وجود الحيوانات والبشر وسبب وجود الآلهة أيضاً . لأن الآلهة لايستطيعون أن يدوموا إلا من تغذية البشر لهم . فبماذا يستطيع البشر أن يُغذّوا الآلهة إذا لم يكن هناك لحوم وحيوانات ؟ وأي شيء تسقيهم إذا مافُقِد « دم العنقود » كما يقولون في فينيقية ؟

لماذا انقضت الأيام الجميلة بسرعة؟ ولماذا لاتدوم النباتات إلاّ بضعة شهور ؟ ولماذا لاتُنتج الأرض كل أيام السنة الأشياء الضرورية لحياة الكائنات ؟ تلك هي الأسئلة التي كانت تطرح هنا وهناك ، والجواب هو: لم يُرد « إيل » أبو الآلهة ذلك . وكذلك «موتْ» إله الموت أراد هذا. هكذا قرر «إيل» و «موتْ» باتفاق مشترك منذ بدء الأزمنة وللأبد. وإذا كان «بعل» ابن الإله فهو إله غير خالد، وخلوده لايكون إلاّ متقطعاً ومشروطاً .

إن الكائن السريع العطب بحاجة إلى المساعدة. وهذه المساعدة اللازمة لن تأتيه إلا من قبل أخته الكبرى «عانات» . فكأن هذه هي الوجه المسيطر في كل هذه الأسطورة. إن «عانات» لاتمثل قوة الطبيعة بين قوات أخرى فحسب بل هي القوة الكاملة للطبيعة ، لابل هي روح العالم . ولكي تتوصل إلى كل ماتصبو إليه فهي لاتحجم عن شيء . فهي تقتل ـ كما رأينا ـ سكان مدينةٍ بأسرها اذا اقتضى الأمر ، وليس هذا خبثاً منها ولانزوة فهي تمشي قُدُماً نحو غاياتها، وغايتها تأمين سلام العالم والعمل لمصلحته .

أدونيس

لم تعرف شخصية من شخصيات القصص الشعرية ، أو من أساطير الميتولوجيا كا عرفت شخصية «أدونيس» . واذا كان هذا الاسم شهيراً فإن الفكرة والأفكار التي تخطر في الذهن أو تتمثل فيه ليست محددة تماماً . ولذا ليس من السهل تقديم تعريفٍ كامل له ببضع كلمات . ولقد برهنت هذه التجربة في حالة « أدونيس » وفي حالات غيره بأن التعريفات الموجزة لاتعبّر إلا عن صفة أو صورة واحدة من صور الأشياء ، وربما لم تكن تلك الصورة هامة أو ربما كانت خاطئة .

ولكي لانخرج عن موضوعنا ، يجب أن نستشير أحد[١٠٢] هذه المعاجم التي بين أيدينا . فماذا نرى تحت اسم «أدونيس»؟ اننا نقرأ : «أدونيس» كان شاباً اغريقياً ذا جمال باهر ، جرحه خنزير برّيّ بجرحٍ مميت فحوّلته «فينوس»[١٠٣] إلى شقيقة نعمان » .

ليس هذا التعريف مغلوطاً كله بل ناقصاً . لقد نَعَتَ «أدونيس» بشاب إغريقي ، هذا حقيقي ، لأن الإغريق تبنّوا «ادونيس» ـ ولاسيما نساؤهم ـ في «أثينا» منذ عهد «ألْسِيبيادِسْ»[١٠٤] وليس في هذا الاسم من إغريقية الا نهايته « يس » . «فـأدون» كلمة فينيقية معناها «السيد أو المولى» مثل «بعل» الذي معنـاه «السيد» . ومـع ذلـك فمـظهـر الاسم اغـريقي مثـل «إيزيس» . و «أوزيريس»[١٠٥] المصريين وغيرهما . ولقد عرفنا أسطورة «أدونيس» من اليونانيين والرومان[١٠٦] .

---

(١٠٢) هذا المعجم الذي استشاره هو لاروس ، فنرى نفس العبارة في اللغة الفرنسية . «المعرب» .

(١٠٣) فينوس الزُّهرة ـ «المعرب» .

(١٠٤) قائد اغريقي تمتع بصفات لامعة ، وكان طموحاً فاسد الطوية ـ «المعرب» .

(١٠٥) ان هذين الاسمين ينتهيان بـ «يس» . وأكثر الكلمات العَلَمية لها هذه النهاية . «المعرب» .

(١٠٦) راجع : مذهب واعياد «أدونيس تموز» في مجلة الشرق التقليدي لفالي و «أدونيس والإله الذي يموت» لجيمس فرازر . ـ «المؤلف» .

أسطورة «أدونيس»

نلتقي لأول مرة باسم «أدونيس» وأسطورته عند شاعر كان يعيش في القرن الخامس قبل الميلاد ويدعى «بانْيازيسْ» ، وهو اغريقي اسيوي ولد في «هاليكارناس» مسقط رأس هيرودتوس[١٠٧] ، ويقال إنه ابن أخ أو ابن عم أبي التاريخ . لم يكن «بانيازيس» شاعراً كبيراً وقد فقد ديوانه كله تقريباً ، وبين ماتبقى منه بعض أبيات تتعلق «بأدونيس» وهي جديرة بالانتباه .

يقول شاعرنا : إن «أدونيس» ولد من أميرة أشورية ـ يريد أن يقول «سورية» إذ لاشك انهم كانوا يخلطون بين الاسمين أو بين البلادين : «أشوريا» و «سوريا» وليست سوريا الا شكلا مختصراً من «أشوريا» . ـ وعلى كل حال فان اسم هذه الأميرة « مِيرْها » (Mirrha) .

وكان أبوه ـ وهو أبو «ميرْها» ـ يدعى «ثَياسْ» (Théias) . وكره الأب ابنته الكره الشديد فهربت منه والتجأت إلى الآلهة تطلب مساعدتها . وقبل الآلهة رجاءها ولكي يخفوها عن ملاحقة أبيها لها حوّلوها إلى شجرة أو شجيرة سميت منذ ذلك الوقت باسم «ميرْها» المير أو المر[١٠٨] . وبعد تسعة أشهر انشق لحاء هذه الشجيرة عن طفل ذي جمال أخّاذٍ عجيب . فأخذته «أفروديت»[١٠٩] وحبسته في صندوق أودعته عند الإلهة «بيرْسِيفون»[١١٠] التي فتحت الصندوق ـ ولم تؤمر بتجنب فتحه ـ ولما رأت هذا الولد الرائع الجمال رفضت أن تعيده لأفروديت . فكان سبب عراك حاد بين الإلهتين ولم ينته الا بتدخل أبي الآلهة «زيوس»[١١١] . فقضى بأن يبقى الطفل عند «أفروديت» أربعة أشهر وعند «بيرسيفون» أربعة ، ومابقي من السنة ، يكون «أدونيس» حراً يتصرف على

(١٠٧) مدينة قديمة في آسية الصغرى وهي عاصمة مقاطعة «قاريا» على شاطىء الأرخبيل «المعرب» .

(١٠٨) المر شجرة ذات صمغٍ ذي رائحة طيبة ، وقد ورد ذكره مراراً في التوراة ـ «المعرب» .

(١٠٩) اسم يوناني لفينوس (الزهرة) ولعشتروت الفينيقية . « المعرب » .

(١١٠) ربّة يونانية ابنة «دِيميتِرْ» و «زيوس» وهي مليكة الجحيم ـ «المعرب» .

(١١١) «زيوس» عند الاغريق مثل «جوبيتر» عند الرومان و «إيل» عند الفينيقيين ـ «المعرب» .

هواه وينتقي من يشـاء من المتنـازعتين ، فانتقى ـ كما يقولون ـ «أفروديت» . وهكذا يقضي أدونيس ثلثي السنة على وجه الأرض قرب إلهة الحب «افروديت» والثلث الباقي يسكن في باطن الأرض أو في الأرض إلى جانب مليكة الجحيم (بيرسيفون) أي في عالمٍ يقطنه الموتى ولكنه المكان الذي تنضج فيه المواد التي تُنبت القمح وجميع النباتات التي يتغذى بها الأحياء .

أما الأسطورة التي تحدث عنها «بانيازيس» فهي لاتشتمل إلا على قسم من حياة الإله وهو نبذة من وجوده ولكنه تام . ومهما كان فان القصة لاتخلو من فائدة لأنها تظهر بكل وضوح علاقة «أدونيس» بالشجرة وهي علاقة وثيقة جداً لأنها ـ بكل تأكيد ـ ذكرى لتقاليد قديمة تعود لعصرٍ لم يكن فيه أدونيس « إلهاً إنسـانـاً » بل نسمةً تنعش الطبيعة كلها ، وتختلف قوتها (النسمة) باختلاف الفصول خلال سنة واحدة . وهذه النسمة أو هذه الروح ـ سمِّها كما تشاء . اتخذت منذ زمن مبكر ـ ونعتقد هذا ـ مظهراً طبيعياً أي جسماً . ووفقاً لطبيعة البلاد فهذه النسمة تتمثل بسنبلة تعطي الخبز أو بعنقود يقدم الخمرة أو بالشجرة التي هي أجمل نتاج للأرض المغذية . وبما أن الرواية التي كتبها «بانيازيس» من أن « أدونيس» ولد من شجرة نستطيع أن نؤكد ان تلك الرواية جاءت من بلاد الغابات .

وبعد زمن « بانيازيس » بمدة طويلة ، أي في قرن أوغسطس* ، تغنى «أوفيد»[112] بدوره «بـأدونيس» في كتـابـه العاشر من «الاستحالات»[113] فإذا ماصدّقنا الشاعر اللاتيني (أوفيد) كان «ادونيس» ابن ملك قبرص وليس ابن ملك أشوريا او ابن ملك اليونان ، وولد من «ميرْها» المحوّلة إلى شجرة والتقطته

(*) أوغسـطس قيصر أحـد أبـاطرة الرومان العظماء ، استولى على جميع حوض البحر المتوسط وهزم انطونيوس وعشيقته كليوباترة . «المعرب» .

(١١٢) أوفيد من كبار شعراء اللاتين ، امتاز بعذوبة اللفظ وسلاسته وانسجامه ـ «المعرب» .

(١١٣) مجموعة شعرية لأوفيد مؤلفة من ١٥ كتاباً وهي أسمى وأجمل الشعر اللاتيني تغنى بجميع الأساطير الميتولوجية ـ «المعرب» .

«عرائس الغابات» وأحطنه بكل ضروب الاعتناء حتى أصبح شاباً ، والتقت به «فينوس» مصادفة ـ وفينوس هي «أفروديت» ويسميها الشرقيون «عشتروت» فرأته يسطع بالجمال فصممت من وقتها على أن تهجر «الامبيرية»[114] وقد رأت ان السماء بأجمعها لاتساوي «أدونيس» وحده .

وذات يوم ذهب «أدونيس» للصيد ، في غابة ليست في قبرص بل في غابة فينيقية تسمى «لبنـان». فأوجست «فينوس» خيفة وحاولت بشتى الطرق أن تمسك به وتمنعه من الذهاب ولكنها باءت بالفشل . وهل كانت الإلهة تستطيع أن تمنع «أدونيس» عن القيام بعمله هذا؟ كان يجب عليها أن تدرك أن القضاء أقوى من إرادة الإلهة ومن ارادة الآلهة نفسها . وبينما كان وحده في وسط الغابة وفي إبّـان نشـاطه هاجمه خنزير بريّ ضخم وجرحه في فخذه جرحاً خطيراً ، وأسرعت «فينوس» فرأت الاله الشاب جثة هامدة ، فمددته على سرير ـ على سرير من الخسّ ـ وضمّـدت جراحـه ، وسكبت العـطور على الـدم المتدفق بغزارة. ومن هذا الدم المخلوط بالطيوب تولدت زهرة : شقيقة النعمان الواهية كالنسمة ـ وانتشر الدم بصورة واسعة على الأرض حتى وادي النهر القريب ـ هذا النهر يسمى نهر «أدونيس» ـ وتحوّلت مياهه فجأة إلى دم قاني .

ونـلاحظ أن بين الروايتين ـ رواية «بانيازيس» ورواية «أوفيد» صفاتٍ مشتركة في أصل الإله وولادته وحبه وموته . ولاشك أن «فينوس» بكته طويلاً ـ وكـان يجود بروحه ـ وحاولت أن تحييه ولكن عبثاً. وعندما مات لم تقم بأية حركة ولم تتخذ أي شيء لتعيده إلى الحياة . فكأنها شعرت أنها عاجزة أمام هذا الحدث الرهيب .

وهكـذا في العصر القديم ـ أو في العصور القديمة ـ تمثل لنا أسطورة «أدونيس» أغنية «رعوية» مفجعة أو قصة ذهب بطلاها[115] ضحية حب تحطم سريعاً . ومن دراسة الآثار التي تعود إلى تلك الأزمنة ـ نقوش على اللوحات أو

---

(١١٤) القسم الأعلى من السماء يسكنه الآلهة ـ «المعرب».

(١١٥) أي بعل وأدونيس . «المعرب».

الجـدران وتمـاثيل مع نقوش ورسوم ولاسيما رسوم «يومبئي»[١١٦] ـ نرى أنفسنا مقودين إلى نفس الاستنتاج . والغريب أن هذه المشاهد المختلفة التي تمثل ولادة «أدونيس» وصيده وموته ـ ولاسيما موته ـ لم تذكر حتى ولا واحد منها عودته إلى الحياة أو خارجاً من الجحيم (باطن الأرض) ومنتصراً على الموت .

ولدينا قصيدة عنوانها : أغنية في رثاء «أدونيس»[١١٧] وهي من نظم شاعر يدعى «بيون» Bion من إزمير . ـ وإزمير مدينة غير بعيدة من «هاليكارناس» موطن «بانيازيس» . والقصيدة مرثاة طويلة عاطفية شاعرية وتبدأ بهذه العبارة : « لقد مات ، مات أدونيس الجميل» . وهذه الكلمات تتردد بعد كل مقطع ، فكـأنها الـلازمـة . وهي (القصيدة) من البحر الاسكندري[١١٨] ، أنيقة قليلة التكلف ، فنقـرأ مثلاً أبياتاً جميلة مثل هذه: «جرح عميق واسع فَتَحَ جانب «أدونيس» ولكن في قلب «كيبريس فينـوس» جرح أعمق وأوسـع» ونـرى « كيبريس » تهيم بين الجبال وفي بطون الأودية مولولةً معولةً من الألم وصارخة : «لماذا ذهبت إلى الصيد؟ إنك جميل فلماذا تسعى وراء الحيوانات المتوحشة؟»

وربـما نظم «بيون» تتمـة لمرثـاتـه ـ في قصيدة أخـرى ـ تتعلق بعـودة «أدونيس» ولكنها لم تصلنا ـ إذا كانت موجودة ـ واذا ماتتبعنا أصول ماحللناه يبدو لنا ـ في نهاية العصر القديم ـ أن «أدونيس» يمثل الإله المضطهد الميت المقتول . ولكن لاشيء يشير إلى أنه سيعود ثانيةً إلى الحياة .

ومع ذلك ـ في الشرق القديم وفي العصور الغارقة في القدم ـ وعلى هذا يجب أن نعتمد ـ نرى ان موت الاله الشاب كان من جرّاء حادثة مفجعة ، لامهـرب منهـا، وكـانت سبباً لانسكاب دموع صادقة، ليس من قبل البشر فحسب بل حتى من قبل الآلهة . والشيء الهامّ هنا هو العودة بعد الموت كما جرى لبعـل . وكـذلك نرى ان الخالدين (الآلهة) ينتظرون الموت كما ينتظره خدمهم (البشر) .

---

(١١٦) بومبيئي مدينة رومانية صغيرة دفن فيها الامبراطور بومبيوس . وكانت مكاناً لطلاّب اللذة من أغنياء الرومان ـ «المعرب» .

(١١٧) Epitoplios Adunidoo ـ «المؤلف» .

(١١٨) البحر الاسكندري عند الفرنسيين يشتمل على اثني عشر مخرجاً dauze syllabes ـ «المعرب» .

على رأي «أوفيد» ولد أدونيس في قبرص وعلى رأيه أيضاً مات في لبنان . والحقيقة أن جميع أحداثه وقعت في لبنان، واذا كانوا يقولون ـ في عصر أوغسطوس ـ بأن أباه كان ملك قبرص فهذا يعني أن التعبد له دخل باكراً ـ بدون شك ـ إلى قلب هذه الجزيرة الكبيرة القريبة جداً من الشاطىء السوري . واستقبل هذا الدخول بحماسٍ شديد كما استقبل في كثير من نقاط شواطىء البحر المتوسط. ولكن من لبنان خرجت هذه الأسطورة ، ومن جباله وغاباته ومن وسطه أي من «بيبلوس»[119] المدينة الهامة تسربت إلى جميع حوض البحر .

أدونيس في جبيل

أقيمت حفريات عظيمة في جبيل عام ١٩٢١ . وتتابعت الأعمال دون انقطاع تقريباً حتى أواخر تلك الشهور ، فظهر من الأبحاث الطويلة الصبورة حَدَث كبير الأهمية ، ذلك أنه منذ فجر التاريخ كانت لجبْيل علاقات جد وثيقة مع مصر . وهي ذات طابع اقتصادي ولاسيما الخشب . ففي مصر نخيلٌ ولكن خشبه اسفنجي لايصلح للبناء ولايصلح في النجارة . وبما أن غابات لبنان ملأى بشجر الأرز والصنوبر والشوح وغيرها فكان تصدير الأخشاب يجري بكميات كبيرة ولذا نشأت العلائق بين مصر وبيبلوس .

ولدى أول ضربات الفؤوس أظهرت الحفريات محراباً كان مزدهراً في الزمن الذي شيدت فيه الأهرامات الكبيرة أي في القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد . وقد استخرج من ذلك المحراب آنية من المرمر الأبيض ، أكثرها على شكل قِردة جالسة القرفصاء وتحمل على جانبيها أسماء مثل « خوفو »[120]

---

(١١٩) اسم «بيبلوس» يوناني ومعناه ورقة البردي . وفي العهد القديم تسمّى جِبَل وفي النصوص المسمارية «غوبلو» أما الآن فهي جُبيْل تصغير جبل في العربية . قاد حفريات «بيبلوس» بييرمونتل Pierr Mon-tel عام ١٩٢١ إلى ١٩٢٤ ثم قادها بعده موريس دونو ـ «المؤلف» .

(١٢٠) امبراطور مصري من الدولة الرابعة أقام أكبر هرم في مصر . «المعرب» .

و« ميسيرنوس »[١٢١] وهي تشمل على قرابين (تقدمات) رفعها الفراعنة الأقوياء من الدولة الرابعة لإله بيبلوس إما ليعربوا عن شكرهم وامتنانهم وإما ليطلبوا منه إحساناً جديداً . ووجدت أيضاً سلسلة كبيرة من الأدوات الصغيرة مختلطة بالردْم . وهي كلها من العاج ارتفاع الواحدة ٤ سم وهي من تلك الرموز التي تكثر في مصر على مختلف العَصور ، وكانوا يسمونها « زِدْ » Zed وهي علامة « أوزيريس » أكبر إله شعبي في وادي النيل .

ولقد طال الجدل على معنى هذا الرمز وقيمته منذ بدء دراسة الآثار المصرية . فكان « شامبوليون » يرى أن تلك الرموز ليست إلّا ضرباً من ضروب مقياس النيل . وذهب آخرون بأنها سرج يجلس عليه المثّال أو الرسّام عندما يشرع في العمل . وربما كانت مذبحاً مكوناً من أربع مناضد وضعت فوق بعضها البعض وربما كانت عموداً يحمل عتبات الباب الأربعة أو سلسلة من أربعة أعمدة وضعت صفاً واحداً ولايُرى منها إلا تيجانها المنضودة فوق بعضها. وقد اقترح البعض الآخر أن تُعْتبر هذه الأدوات صورةً تمثل الأقطار الأربعة التي يتألف منها الكون . إلى جانب هذه التفاسير العصرية المختلفة جداً يجب أن نضيف تفسيراً آخر هو : إن هذه الأدوات عبارة عن موضع يقدمه الكاهن المصري للزائر ليثبت أن « زِدْ » كان العمود الفقري لمذهب « اوزيريس ».

ودون أن نقف عند هذا الحل ، فإن دارسي الآثار المصرية يرون اليوم ـ ولكن ليس بالإجماع ـ بأن « زِدْ » يمثل جذع شجرة ، شجرة قد قطعت أغصانها وكما يقول الأشراف : منزوعة الجوانب . وإذا كان ذلك كذلك ، أليس من الغريب بأن يُتَمثل إله بشكل شجرة في بلاد لا يوجد فيها غابات . وعلاوة على ذلك بشكل شجرة مقطوعة الأغصان .

ويقودنا هذا الأمر إلى القول بأن « زِدْ » يمثل صورة إله بيبلوس وإن هذا

---

(١٢١) امبراطور مصري عاش في الجيل العاشر قبل حرب طروادة ، وبني الثالث من الأهرامات الكبيرة. «المعرب».

الرمز استعير من فينيقية . واستناداً على هذه النظرية نستطيع أن نعلل بعض النصوص المتعلقة بأوزيريس وبيبلوس معاً ، وهذا النص جاءنا من « بلوتارْكْ »[١٢٢] مؤلف كتاب : « حياة عظماء الرجال » وكان ذا ذهن منفتح لمعرفة مختلف الأشياء .

يروي « بلوتارك » : عندما قتل « تيفون » أو سيث Seth أخاه « أوزيريس » - « سيث » يمثل الظلمة أو الشر و« أوزيريس » يمثل النور والخير - وضع جسمه (جسم أوزيريس) في صندوق وأُلقي في البحر فتقاذفته الأمواج حتى وصل إلى الشاطيء السوري في فينيقية وبالأصح لفظه البحر على رمال بيبلوس عند ساق شجرة من نوع « إيريقا » . فما كان من هذه الشجرة إلا أن جذبت الصندوق إليها فتجسدا معاً .

إذن فحادثة اسطورة « أوزيريس » - وهي من أفجع الأساطير بشهادة « بلوتارك » - جرت في « بيبلوس » من جهة ، ومن جهة اخرى لقد ذكر « زِدْ » ذلك الرمز الذي يمثل في مصر « أوزيريس » في عددٍ من النسخ البيبلوسية وفي أساس محراب يعود إلى الألف الثالثة ق.م . ومع ذلك فاننا لانستطيع أن نجزم - في هذا التقريب - بأن « أوزيريس » نشأ من « أدونيس » إذ ربما كان الهيكل الخاص بأوزيريس مكاناً يجتمع فيه المصريون الذين كانوا يأتون ليتسوّقوا من « بيبلوس » .

والحق يقال بأن مسألة العلاقة بين « أوزيريس » و« أدونيس » لجد وثيقة ولكنها لاتكفي لوضع حلول لها . ولكي نتوصل إلى تلك الحلول المقنعة يجب أن نطلع على الكثير الكثير عن هذين الالهين الشابينْ ؛ لأننا لانعرف « أوزيريس » إلا عن طريق بلوتارك ولانعرف « أدونيس » إلا من « أوفيد » و« بانيازيس » فهما وحدهما المرشدان .

لاشك أن اسم « ازويريس » ورد كثيراً في النصوص المصرية ولكن

---

(١٢٢) بلو تارك مؤرخ ومؤلف في تهذيب الأخلاق ولد بين عام ٤٥ و ٥٠ ب.م. درس في أثينا وسافر إلى آسيا ومصر . مؤلفه : حياة عظماء الرجال في اليونان ورومة . «المعرب» .

ترجمتها غير قطعية لابل مشكوك بها . أما اسم « أدونيس » فقد ظهر لنا من حفريات « بيبلوس » التي دامت سبعة وعشرين عاماً والتي قدمت لنا مؤشراتٍ ثمينة . ولكنها لم تقدم لنا شيئاً يذكر عن هذه الشخصية ، لافي الآثار الممثلة ولا في الوثائق الأدبية ، بل أبرزت (الحفريات) بعض التماثيل المبتور أكثرها والتي تمثل إلهات أو إلهة واحدة ذات صفات موحّدة ـ وربما أخذ رسمها على أشكـال مختلفة ـ. ولانستطيع أن نقول جازمين انها تمثال « عشتروت » رفيقة « أدونيس » أو « إيزيس » زوجة « أوزيريس » .

في مجال التاريخ القديم كثيراً ما يحدث ـ كما هو هنا ـ أن نقع على أحداث لها أهمية كبرى ، ولكننـا لانعـرف كيف نفسرهـا ولاسيما إذا ما اختلطت في أحداث اخرى لاقيمة لها . ومن هنا ـ لاشك ـ جاءت « ملاحظة » « ج . دي هامل » قال : « في بعض الأحيان تبدو لنا العصور القديمة مسطحة مثل صور الجدران ونحاول أن ندرك مظهرها ولكنا نقف حيارى ونقول « خداع نظر » . وفي الواقع ليس هناك حيرة ولاخداع نظر ، وذلك لأن معرفتنا عن الماضي جزئية ومحـدودة ولانستـطيع أن نكون على ثقةٍ من أمرنا إلاّ إذا ما اطلعنا على جميع حفريات الشرق من أعلاها إلى أسفلها . وعند ذلك تبدو لنا الحقيقة عارية تامة » .

وهـذا ما يتعلق « بيبلوس » . ومع أن ترابها قد اكتشف بصورة واسعةٍ وعميقة فإن قصة « أدونيس » و« عشتروت » قد انفلتت من جميع البحوث . ولكننا لانشك ـ أمام شواهد كثيرة خلفتها لنا العصور القديمة التقليدية ـ بأن التعبـد الحـار لأدونيس كان يجري في المكـان ، ليس في « بيبلوس » بل في « بيبلوس » المقدسة ـ كما يقولون ـ أي في نقطة تبعد يوماً واحداً من المدينة أي في قمة جبل ارتفاعه (١١٠٠)م وقرب نبع نهر « أدونيس »، كما كان يسمّى من قبل والذي يسمّى الآن بنهر « أفقا » . اذ في « أفقا » مزّق الحيوان المفترس الاله الشاب وفي « أفقا » دفنته « فينوس »ـ « عشتروت » .

لقـد وصف كثـير من المسـافـرين المعـاصرين نبع « أفقا » وكتب عنه

« إرْنيسْتْ رينان »[١٢٣] قال : « أفقا » أجمل مكان في العالم . النهر يتدفق من شلال إلى شلال حتى يغوص في أعماق مخيفة . لقد امتزجت عذوبة الماء بلطف الهواء بجمال النبات . كل شيء أخّاذٌ ساحر ؛ والطبيعة السكرى العجيبة تمتد على تلك المرتفعات وتجبر الانسان أن يستسلم لأحلامه في ذلك المجال الخيالي » . أما بالنسبة لي فقد زرت « أفقا » منذ عشرين عاماً ، وكان ذلك في شهر آب ، في وقتٍ كان الماء قليلاً وكان صخب الشلالات قد تحوّل إلى خرير ضعيف لايُسْمَع إلا من مكان قريب . فكان انطباعي الوحيد هو : هدوء تام وعزلة تامة .

وهنا أقيم ـ في القدم ـ هيكل « فينوس » « أفقا » أو « فينوس أفاسِيتْ »، ويدعى أيضاً محراب « عشتروت » عشيقة أدونيس وحارسته . ولكن لم يبق منه حجر على حجر ، لقد خُرِب في عهد حربٍ صليبية قادها « جانْ كريز وسْتومْ »[١٢٤] المتشدد في حماسه . ومن الواجب أن نقول بأن فينيقية كانت ـ في القرن الرابع ـ متعلقة بعبادتها القديمة أكثر من جميع مقاطعات الشرق .

إذن في « بيبلوس »، في « أفقا » وعلى طول نهر « أدونيس » ـ الذي ليس كبقية أنهار فينيقية بل هو شلال جبلي لاغير ـ كانت تقام الاحتفالات التي تسمى في العهد اليوناني ـ الروماني « أدونيا » أو كما نقول « أدوني » وهي أعياد يشترك فيها لا سكان البلاد فحسب بل يأتي الحجاج من جميع الجهات ، يشاركون بعضهم البعض المخاوف والآمال والأفراح .

---

(١٢٣) عالم فرنسي وفيلسوف ومؤرخ (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢) من مؤلفاته : «أصل النصرانية» . «المعرب» .

(١٢٤) يوحنا فم الذهب أحد آباء الكنيسة وبطريرك القسطنطينية اشتهر بفصاحته وكان من تعصبه خراب الهيكل المذكور أعلاه . «المعرب» .

أعياد « أدونيس »

بعد أن قدمنا طبيعة الإله ، طبيعته المزدوجة حياً ومدفوناً ، لابد أن نقول : كان يُحتفل كل سنةٍ بعيدين يتميزان عن بعضهما ومنفصلين بشهور عديدة : الأول عيد موت أدونيس والثاني عيد عودته إلى الحياة . والحقيقة إذا ما دققنا يبدو أنه كان لايوجد إلاّ عيد واحد يستغرق عدة أيام . والوثائق التي نستند عليها غير متفقة اطلاقاً على تاريخ هذين العيدين أو هذا العيد الوحيد .

ولكننا نعرف أن الامبراطور « يوليانوس »[١٢٥] عندما اجتاز آسية الصغرى على رأس جيش لمحاربة الفرس ـ وانتهت الحرب بموته ـ دخل انطاكية ـ وكان ذلـك عام ٣٦٢ ب . م . ـ في نفس الـوقت الـذي كان يحتفـل فيهـا بعيد « أدونيس » . وكانت الزينات باهرة في كل مكان والصراخ عالياً . وكان ذلك في شهر تموز ـ وهو اسم أدونيس ـ حسب التقويم الشرقي .

أما في بيبلوس فكان العيد يقع تماماً في أول الربيع . إذ في هذا الفصل يذوب الثلج فيتـدفق ماء النهـر الهابط من « أفقا »، وبما أنه يجري في أرض حديدية يتحول الماء إلى الاحمرار فكأنه يتدفّق من دم الإله الشاب .

وفي اليونان كانت أعياد « أدونيس » تقام إبّان الصيف ، أيام القيظ ، ويجري هناك كما يجري في انطاكية أي احتفال جنائزي ، لأن العالم الاغريقي أو الهلليني لايعتقد بقيام الإله الشاب من بين الأموات .[١٢٦]

---

(١٢٥) امبراطور روماني (٣٦١ ـ ٣٦٣) ونشأ نصرانياً ولكنه ارتد الى الوثنية . أصيب بجرح قاتل في حربه مع الملك سابور ـ الفارسي ـ ترك رسائل ونظريات فلسفية ـ «المعرب».

(١٢٦) كانت فكرة «القيام من بين الأموات» غريبة وبعيدة عن عقلية الاغريقيين كما كانت تخيف عقول الذين تثقفوا بالثقافة اليونانية. انظر «رينان» في كتابه تاريخ اسرائيل «المجلد الخامس وجه ٣٣٨. وانظر أيضاً «دريوتون» وفانديه المجلد الثاني وجه ٧٨ . قالا : «في شرح بلوتارك لايوجد ذكر لتعطير «اوزيريس» ولا لقيامه من بين الأموات» . ولقد هذب المؤلف اليوناني القصة فبدت مبتذلة وغامضة . ولنتذكر ان القديس «بولس» عندما خطب في الأريوباج (محرقة يونانية عليا) عن قيام المسيح استوقفه اليونانيون وهم يسخرون من الرسول قائلين: «سنستمع لك في المرة القادمة عن هذا الحدث» ـ «المؤلف».

وفي فلسطين ، فى القرن السادس للميلاد كانت نساء أورشليم (كما جاء في سفـر حزقيال الاصحـاح الثـامن العبارة ١٤)[١٢٧] ـ وكن قد اقتبسن عادات فينيقية ومعتقـداتها ـ يتجمعن في يوم محدّد من السنة أمام أحد أبواب[١٢٨] الهيكل ليبكين موت « أدونيس ـ تموز » . ليبكين لا ليُحيِّينْ عودة الإله . وبعد زمن طويل ـ ٨٠٠ سنـة بعـد ـ كان نسـاء بيت لحم[١٢٩] ـ بشهـادة القديس جيروم ـ[١٣٠] يجتمعن كل سنة ويسكبن الدموع بغزارة فيشتركن بعملهن هذا في حداد الطبيعة وذلك عندما يبلغهن خبر اختفاء « أدونيس » .

وأخـيراً في بيبـلوس ـ فلنـعُــد إلى ما نحـن في صدده ـ كانـت أعياد « أدونيس » تدوم ثمانية أيام ، فالسبعة الأولى مكرسة لبكاء الإله الشاب ونذْبه ودفْنه . في خلال هذا الاسبوع كان السكان يغرسون في آنية من الفخار بذور الشمرة والقمح والخسّ وشقائق النعمان ؛ ويسمونها حدائق « أدونيس »، هذه الحـدائق الصغـيرة جداً تنمـو وتذبل في ثمانية أيام . وتعتبر رمزاً لقصر الحياة ولاسيما لقصر حياة أدونيس .

وإلى هذه العادة أشار نص غريبٌ ذكره « فرانز كومون » ويتعلق بامرأتين نصرانيتين من اسبانيا هما القديستان « جوسْت » و« روفين » وجرى المشهد في مدينة « سبتة » في أواخر القرن الثالث ب . ع وذلك في اليوم الذي تمشي فيه أمينات الإلهة « سالامبو »- وهي عشتروت قرطاجة حبيبة « أدونيس » ونادبته ويسميهـا كتّـاب الـلاتـين « فينـوس لوجنس »- يبكـين وينـدبن . وبـما أن « جوست » و« روفـين » كانتـا تبيعان الأواني الفخارية المشوية ـ وكانت هذه مهمتهـا ـ. فكـان أتباع « سالامبو » يريدون أن يشتروا منها ليزرعوا حديقة « أدونيس » ولكن النصرانيتـين (جوست وروفين) رفضتا بسخط أن تشتركا حتى ولابصورة غير مباشرة بتقاليد الوثنيين ، وبلغ من تشددهما وحماسهما أن

---

(١٢٧) العبارة وردت هكذا : «إذاً هناك نسوة جالسات يبكين على تموز ـ «المعرب» .

(١٢٨) هو الباب الشمالي وكما رأينا من قبل بأن جبل بعل كان يُدعى «صافون» أي الشمال ـ «المؤلف» .

(١٢٩) بيت لحم مدينة فلسطينية ولد فيها النبي داود والمسيح ـ «المعرب» .

(١٣٠) من آباء الكنيسة ترجم التوراة إلى اللاتينية (حوالي ٣٣١) «المعرب» .

ألقتا أرضاً تمثال « سالامبو » ولكنهما أُجْبِرتَا على السير في الموكب وما أن انتهى الاحتفال حتى أخذتا وعذبتا حتى الموت .

هذا في العصور الحديثة ، أما في عصرنا فإننا نرى في بقاع متعددة من عالم البحر المتوسط احتفالات تشبه تماماً احتفالات العصور الغابرة . ولنأخذ مثالاً على ذلك : بروفانسا[131] وسردينيا .[132] ففي الأولى يحتفل بالعيد إبان الشتاء في ٤ كانون أول أي في عيد القديسة « بارب »[133] وفي الثانية كان يحدث العيد في انقلاب الشمس أي في ٢٤ حزيران . ويتغير هذا التاريخ وفقاً للبلاد الاخرى . وهذا ما يذكرنا بالفوارق الزمنية والمكانية في احتفالات أعياد « أدونيس » .

وفي اليوم الثامن وهو اليوم المنذور بكامله لقيام « أدونيس » من بين الأموات ، تقوم « بيبلوس » وتقعد ، فكانت خادمات الإله يذهبن إلى الميناء ليستقبلن أداةً يحملها البحر كل سنة وبدقّة ـ كما يبدو ـ هذه الأداة هي رأس ورقة بردي ألقتها نساء الاسكندرية إلى البحر قبل ثمانية أيام تلبية لارادة اخواتهن الفينيقيات ، فكأنها خضوع من « أوزيريس » « لأدونيس » وكان رأس هذه الورقة رمزاً ـ في ضفاف النيل ـ للزوجة « إيزيس » وذلك بين رموز اخرى . ولدينا هنا برهان زيادة على ما مر من براهين تجمع بصورة وثيقة بين أدونيس وأوزيريس ؛ هذا الشاهد يثبت أيضاً ـ ومنذ عهد الأهرامات ـ ذلك النصب الوثني الغريب الذي يسمّى « زِدْ » .

إذن ، وفقاً لاشارة أو رسالة ترد من مصر ، يعرف حجاج « بيبلوس » وسكانها أن « أدونيس » عاد إلى عالم الأحياء . ولاشك أن المؤمنين به لم يروه قط بأم أعينهم ولن يروه ، ولكنهم كانوا يعتقدون واثقين أنه هنا ويشعرون أنه موجود في كل مكان ، ولذا كان الرجال والنساء ـ ولاسيما النساء ـ يذهبون

---

(١٣١) مقاطعة في جنوب فرنسا. «المعرب».

(١٣٢) جزيرة قريبة من ايطاليا. «المعرب».

(١٣٣) قديسة من نيكوميديا في آسية الصغرى ، عذراء شهيدة وهي حارسة رجال المدافع والاطفاء ـ «المعرب».

ويجيئـون مرددين دون أن يتعبـوا هذه الكلمات البسيطة : « أُدُونْ » (يعني : المولى) قام من بين الأموات .

وفي مصر ـ أو على الأقل في الاسكندرية ـ كانت أعياد أدونيس تظل ثلاثة أيام . وكان الثالث منها هو يوم العودة . وكما قال «ثِيُوكريت»* وترجمه « ليكُونْتْ دي لِيلْ »** شعراً بأن النساء كن يتبادلن أبياتاً مُجَنّحةً مَن هذا النوع :

قرب البحر المُقْفر ومنذ الفجر الأول
(كن) مسرورات يرقصن في حلقة
ويغنينْ الولد الإلهي الذي يخرج من « الأكيرون »(١٣٤)

ثم يخاطبن « أفروديت » نفسها وينشدن أيضاً :

بعد اثني عشر شهراً عاد إليك « أدونيس » .
وبين ذراعيْها الفاتنتين أعادته .
إليك الساعاتُ ،(١٣٥) إلى منازلك الثريّة .
وقد مدَّدْنه على سرير من ذهب .

وفي أعياد الإسكندرية كانوا يعلنون الرثاء النَدْب وكان هناك هتافات حماسية ومواكب صاخبة . وكانت الموسيقى تعزف لأن لها المرتبة الأولى .

وبـاختصار ، ففكرة القيام من الموت غير واردة إلاّ في « بيبلوس » وفي الاسكنـدرية . في « بيبلوس » أولاً لأنها هي أقدم محراب « لأدونيس » ومنها انتشرت عبادته في العالم . وفي الاسكندرية ثانياً ، إذ من عهد البطالسة كانت المذاهب والمعتقدات كلها تتجمع فيها فتشترك وتختلط . فهي مركز المراكز وفيها تقام الأعياد المشابهة تماماً لأعياد « بيبلوس » .

* * *

(*) شاعر يوناني ، وهو زعيم القصائد الرعوية ، اشتهر بحساسيته وخياله وملاحظاته الواقعية . فهو شاعر من الطراز الأول ـ «المعرب» .

(**) شاعر فرنسي اشتهر بقصائده الوحشية واشعاره الميتولوجية ـ «المعرب» .

(١٣٤) نهر في الجحيم كما تقول الميتولوجيا ، ولايستطيع اي انسان أن يعبره مرّتين «المعرب» .

(١٣٥) الساعات : إلهات يونانية بنات جوبيتر وتاميس وهن تابعات لكبار الآلهة والابطال وهن ثلاثة : ثالو وكاربو وأوكسو . «المعرب» .

من جميع ما تقدم يبرز لنا بكل وضوح بأن « أدونيس » كان في الدرجة الأولى إله التجدد . فجماله الباهر وولادته في غابة يجبران على الإعجاب به وعلى عبادته ، ثم اختفاؤه وغيابه الطويل - أو يبدو طويلاً - يشيران إلى أنه صورة للحياة نفسها - وطبعاً لا للحياة الأبدية المتجسدة « بعشتروت » - حياة ما تعطيه الأرض من النتاج الضروري واللازم للكائنات .

إن الأرض التي أشرقت وتجملت في الربيع وغطتها النباتات التي ليست للزينة فحسب بل للغذاء لكل موجود . وبعد أن يجمع الناس تلك الهبات الثمينة ويكدسون المحاصيل يختفي الكوكب أو على الأقل تخف قوته فييبس النبات وتسقط الأوراق ولابد من الانتظار شهوراً حتى تتجدد المعجزة . إذن ، ننتظر عودة « أدونيس » وننتظره بثقة وهو لايخلف الميعاد . هذا وإن كان يخالط هذه الثقة قليل أو كثير من القلق . وإذا ما حدث تأخر عودته في سنة ما فهو لايحدث بصورةٍ مستمرة . وماذا يستطيع المخلصون أن يفعلوا إلّا أن يتجمعوا ويشتركوا في أحزان الإلهة المهجورة - عشتروت - ويساعدوها في اجتياز المحنة ويرجوها أن تطلب عودة مَنْ بيده مستقبل العالم .

يروي « التلمود » : « عندما كان آدم يرى الشمس تختفي في مساء اليوم الذي خلقت فيه يأخذ القلق بحلقه لاعتقاده أن المصباح الذي انطفأ لن يظهر بعد ذلك قط ، وأن النهار الرائع الذي قضاه لا غَدَ له » لقد شعر الناس بهذا الخوف القاتل منذ العصور الأولى كما يشعر به من جاء بعدهم ومن بينهم الفينيقيون . إنه لقلقٌ يطغى على النفوس . وإذا أردنا أن نجمع قولنا في كلمتين نستطيع أن نقول : إن ميتولوجية « أدونيس » تتجاوب مع فكرة الخوف من المجاعة . لقد شكا الناس منها قديماً وحديثاً لأنها تهدد وجودهم . ولذا كانت هذه الميتولوجية أكثر شيوعاً وانتشاراً من غيرها عبر الكثير من القرون والكثير من آلاف السنين ؛ لأنها حيوية جداً .

وهكذا في كل عودة من عودات « أدونيس » كان الإنسان يؤمّن لأسرته ما يقوم بأودها سنة فسنةً . وهنا سؤال يطرح نفسه : هل كان الفينيقيون يعرفون

هذا ؟ لقد كانوا يعتمدون على مولاهم ليظهر لهم نهاراً جديداً ويعود بشخصه إلى الوجود ، لأن الفضل يعود إليه في كل شيء من مرافق الحياة . ولم يتردد بعض المؤلفين بالإجابة فنأخذ مثلاً « أ . مُوريتْ »[١٣٦] الذي كتب : « نحن واثقون من أن الفينيقيين كانوا يعرفون من أعياد « أدونيس » أَمَلَ تجددِ الوجود للإنسان بعد الموت » . ومع ذلك فإن « موريت » هذا كان يعترف بأن الفينيقيين لم يُعربوا عن هذا الأمل إذ لايوجد أي نصّ يدل على « جوهر هذا السر » .

وبـالحقيقة لانملك أي نص يرشد إلى هذه النظرية إلا نصوص رأس شمرا . ومن المؤكد أن قصائد أوغاريت ـ كما نعرفها ـ لاتشتمل على أي ذكر لاعتقـادات من هذا النوع . ولعلّ أُفُقَ الشعراء الكنعانيين كان محدوداً مثل أرضهم وزمنهم . وإذا كان في مصر قد وعد « أوزيريس » بالحياة الثانية لكل عادلٍ وتقي فإن في فينيقية لايوجد أي شيء يدل على ذلك . هذا وإن كنا قد قبلنا التقارب لا بل المشابهة بين الميتولوجيتين المصرية والفينينقية بالنسبة للحياة الثانية فإن هذه المشابهة مأخوذة من التعمق في دراسة الأشياء أو على الأقل هو شيء ظاهر وسطحي[١٣٧] يدركه أي انسان .

ويبدو ـ بعد كل حساب ـ أن للفينيقيين في مسألة الحياة أفكاراً شبيهة بالأفكار البابلية التي ظهرت لنا دون إبهام في قصيدة « جلجامش » لقد ظن ملك « أوروك » أنه يستطيع أن يفوز بالخلود ، وليس ظنه طمعاً لاحدَّ له لأن الآلهة وهبت الخلود لجده ولأنه هو ثلْثا إله . وعندما دنا من هدفه واعتقد أنه نجح جاءت ربة الغابة « سابيتو » وانتصبت أمامه لتذكره بحقيقة حاله ولتنتزع من رأسه كل أملٍ في نيله الثلث الذي ينقصه .

---

(١٣٦) في كتابه: تاريخ الشرق القديم وجه ٦٢١. «المؤلف».

(١٣٧) ان التقارب الذي أقيم من قبل بين «آتون» إله المصريين (الذي قام مقام «راع» خمسة عشر عاماً وذلك طيلة حكم «أمينوفيس الرابع») وبين أدونيس الفينيقي لاقيمة له. ليس في أن لا اشتراك بين الاسمين فحسب بل لأن ادونيس بطل مأساة، وآتـون لاتاريخ له ولا أسطورة حتى ولاشكلا إنسانياً؛ بل هو عبارة عن قرص، قرص شمسي يشع بالأنوار التي تنشر بأيدٍ مبسوطة النِّعم على العالم وعلى الأسرة المالكة قبل كل شيء. تلك النِّعم التي ينتظرها الناس من كوكب النبار. «المؤلف».

كان الفينيقيون في باديء أمرهم فلاحين نشيطين ثم أصبحوا مع الزمن تجاراً ماهرين وعمالاً صناعيين وبحّارة لايُغلبون . ولكنهم لم يرتفعوا عن همومهم المادية . فكانوا يعيشون كل يوم ليومه وكل سنةٍ لسنة . ولا تخطيء قط بأنهم كانوا يعتقدون مثل جيرانهم بأن الشيخوخة السعيدة لاتكون إلا لمن خدم الآلهة بنشاط واستقامة ، فهي أعظم الثواب .

وإذا كان في نهاية الأزمنة القديمة أي في العصر الامبراطوري قد اتخذ أتباع أدونيس أو البعض منهم مفهوماً أسمى ، فلم يكن لأدونيس من فينيقية إلا الاسم . إذ أصبح مثل بقية آلهة الشرق يونانياً بالكلية .[١٣٨]

وهنا يقف المؤلف ، فأقف . وأرى أن القارىء تلمّس بأن لغته العربية التي هي أصل لكل اللغات السامية عريقةٌ في القدم . وما انبثق عنها ليست إلا لهجات تكيّفت مع الزمن وفي كل بيئة .

ماجد خير بك

(١٣٨) وبنفس الوقت نرى في وادي النيل أن الإله الشيخ «أوزيريس» يزول أمام إله آخر يدعى «سيرابيس» جاء من اتحاد المعتقدات المصرية بعقيدة الأسرار اليونانية . «المؤلف».



بعل / يلوح بيده اليمنى بالفاس ويحمل باليسرى رمز الصاعقة
(نصب من راس شمرا)



الإلهة عشـــتار



فتاة تحمل حديقة ادونيس



موت ادونيس، من بومبئي

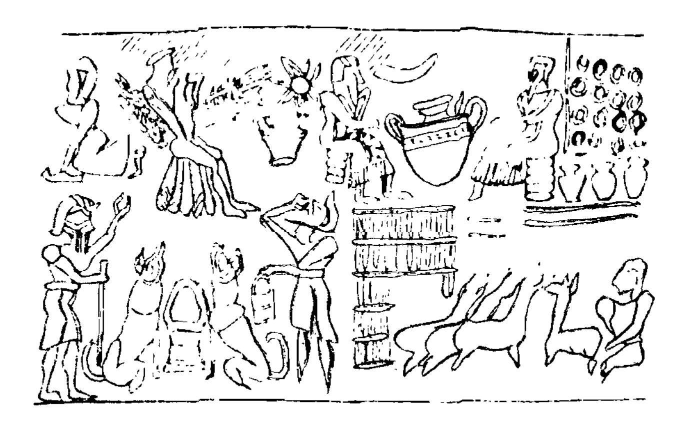




لوحة من صدف
تمثل جلجامش



كاهن يلبس كاوانيس



إيتانا يحمله النسر

الفهرس


التنضيد الضوئي والطباعة
مطبعة الكاتب العربي
دمشق - شارع خالد بن الوليد
٢٣٨٨٦٧
٢١٩٧٣٨

هذا الكتاب

كما نعرف . إن كتب تاريخ العالم كثيرة اليوم وفي كل منها يحتل الشرق القديم أو الشرق التقليدي المكان الذي يخصه .

ولكن في هذا المجال ـ اكثر من غيره من المجالات ـ تكثر التعديلات المستمرة نظراً للاكتشافات العديدة . وقد حان الوقت لوضع كتاب عن الشرق القديم ؛ ولايستطيع كاتب بمفرده أن يعالج هذا الموضوع رغم جدارته ووفرة طاقته إلا بمشاركة اختصاصيين معتبرين ولاسيما في كتابة تاريخ شعوب مختلفة كالحثيين والآشوريين وغيرهما .

في مؤلَّفٍ مفهوم تتابع الفصول وفقاً لترتيب تاريخي منذ عصر السومريين حتى الفتح الروماني . ولكن َمصاعبِ الترتيب العملي التي يصطدم بها الكاتب لتحقيق هذا المشروع شاقّة جداً كما وقع لنا . فعوّلنا أن نعتمد على سلسلة من الدراسات المتعلقة بنقطة واحدة في التاريخ . فقدمت كل واحدة من هذه الدراسات الموجهة والمحددة حالةً ـ في الأبحاث الحاضرة ـ ذات فائدة جلّى . فالأحداث الناتجة من التنقيب جلبت لنا معرفة واسعة ولا سيما عن الذين اهتموا بأصول الحضارات .

وليس القصد من العنوان الذي توّجنا به هذا الكتاب : أساطير بابل وكنعان «وضع كتاب مختصر عن الميتولوجيتين البابلية والكنعانية بل تقديم لمحة بسيطة عمّا هو مهم في تلك الميتولوجيتين المختلفتين عن بعضهما . وهذا مما يبيح لنا أن نقدم ذات يوم تفاصيل أكثر وبصورة مستقلة في هذه المجموعة .

شارل فيروللو

